للمستطمين غير نوع من المشروبات فقط رأت انه يعين على اشتهاء الطعام وأنشأت في انحاء كثيرة من المدينة غرفاً للمطالعة يدخلها في السنة نحو ثلثمائة الف مطالع. وبهذه الطريقة نزل معدل تناول المسكرات في العشرين سنة الاخيرة الى ٤٠ في المائة بمدينة استوكهلم والى ٤٥ في مدينة غوتمبورغ وسنت السويد عام ١٨٩٢ قانوناً اجبارياً يقضي فيه على جميع المدارس أن تلقي دروساً في طبيعة المشروبات الروحية وتأثيراتها المضرة .

هذا ما قامت به حكومة السويد التي لا يحظر دينها تعاطي المشروبات وهي البلاد المشهورة ببردها وزمهريرها فما الذي قامت به الحكومة المصرية التي تحظر شريعتها كل مسكر وحرارة اقليمها لا تعذرها في الاستهتار والاسترسال في كرع كل ما يخترعه المخترعون من أنواعها وما يصنعه الصانعون في أرضها ليبيعوا من فقيرها الكأس بمليم فيورده موارد الهلاك في دار الجحيم . فليت أهل شمالي أفريقية يعملون هم وحكومتهم ببعض ما عملت به حكومة السويد في شمالي أوربا

فان قالوا في الاحصاء الاخير ان في نيويورك وسكانها ثلاثة ملايين ونصف ١٠٨٢٠ محلا لبيع المسكرات بالمفرق وفي باريز وسكانها مليونان ونصف ٣٠٠٠٠ وفي لندرة وسكانها أربعة ملايين ونصف ٥٨٦٠ محلا فانا أقول ان في هذه العاصمة الاسيفة أكثر من هذا العدد يبيع لاهلها الصبوح والغبوق من فاسد الالكحول فيفسد الاجسام والعقول

---

# المآدب والاسراف[1]

في الشريعة السمحة آداب اجتماعية عالية لو عمل بها المسلمون لما لحقت غبارهم أمة في مكارم الاخلاق وتهذيب النفوس . فلو عمل المسلم بشريعته فاخرج الزكاة مثلا لما رأيت اليوم فقيراً ولا جائعاً ولا عرياناً ، ولو تجانف الكذب والتزوير وأكل المال بغير حق لما اشتغل القضاة طول النهار بفض الخصومات بين الناس

---

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ٦ ربيع الآخر ١٣٣٦

البشر الآن فى ضائقة لم ينلهم بمضها من عهد حفظ التاريخ . أمن المروءة أن ينعم بعض افراده ويسرفوا على حين تكفي فضلات طعامهم والزوائد من رفاهيتهم ومظاهرهم لان تعول كثيرين من المحاويج ، وأغرب طرق الاسراف أن يفضل المتوسط الذي هو أقرب الى الفقر من الغنى على الاغنياء والمنعمين ليقال عنه انه كريم وهو يرى فى أهل محلته والمحتفين به مئات يطوون الليالى على الطوى ولا راحم لانينهم

كثير من أوضاعنا وعاداتنا يحتاج الى أن يعالج بالاصلاح لنعود به الى هدى الاسلام ، أو الى أساليب المدنية الحديثة . فقد أصبحنا فى معظم حالاتنا لا الى القديم ننسب ولا بالحديث نعرف أو نعرف ، فغدا مجتمعنا وفيه كثير من النفث والرث وضروب من سخيف العادات والمراسم .

دعا منذ أيام أحد المنتسبين للمعارف مئة وثلاثة أشخاص من أهل بلده الى حضور مأدبة لهم أقامها فى داره وأطعمهم أجود الطعام وضروب الحلواء والمعجنات ولولا لطف المولى لاصيبوا بالتخمة وسوء الهضم ! وقد كان المدعوون أشتاتاً لا تجمع بين كثير منهم الا جامعة السكنى فى بقعة واحدة ومن العادة أن يجتمع فى المآدب الخاصة عند المتمدنين أهل طبقة معينة من الناس حتى يأنس المدعوون . يتساوون فى الجلوس الى الخوان بحيث يكلمهم صاحب الدعوة ويكلمونه . ولكن هذه الدعوة كانت كما هى معظم الدعوات فى هذه الديار لمجرد املاء بطون المدعوين ، كأنهم فى مطعم اجتمعوا بالعرض ، ولا جامعة بينهم الا جامعة الاكل .

فتأمل أمشاجاً من الناس يشتركون على طعام وهو ساعة مؤانسة ومباسطة هل يجدون حديثاً يلذهم على السواء وينفض عقد اجتماعهم على لا شىء اللهم الا قشور من حديث معاد وأمور لاكتها الالسن فلا تنفع فى دين ولا دنيا

قد يضطر بعض أرباب المروآت الى عشرة المتخالفين فى الاذواق والمشارب ، وتدعوه الحال الى مباسطتهم والانس معهم أحياناً ، فاذا أراد أن يجمعهم كلهم فى صعيد واحد فى يوم واحد ، يكون قد أساء اليهم فى الحقيقة أكثر مما أحسن ، خصوصاً من علت عاداتهم عن مستوى العادات العامية التى لا ترجع الى أصل من الاصول المتعارفة ، فقد قال حجة الاسلام فى باب آداب المآدب من احياء العلوم:

وينبغي للداعي أن لا يدعو من يعلم انه يشق عليه الاجابة واذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الاسباب . والغربي اليوم اذا دعا في الغالب انساناً يقول له او يكتب ان مأدبته يكون عليها معه فلان وفلان، فالمدعو اذا لم يرقه الاجتماع باحدهما يكتب قبل ميعاد الدعوة بالاعتذار عن الحضور .

وليمة فيها زهاء مئة مدعو لو أدبت في أرقى عواصم الارض لما حوت الا اخلاط الزمر ، فعلى من اضطر الى دعوة هذا العدد الدثر أو السرية الكاملة ان يقسمها الى خمس مآدب ويقسم الاطعمة وما يتبعها والنفقات وما يتشعب منها على تلك النسبة وهناك تحصل الفائدة من الاجتماع ويعرف كل مدعو انه حضر واستأنس حقيقة ، واذا كان صاحب الدعوة يريد مظهراً فمظهر الخمسة أكبر من مظهر الواحد على كل حال

أقبح ما يقبح من أحوالنا أن نسرف في موطن نحتاج فيه كل الحاجة الى الاقتصاد وصرف المال في سبيله المشروعة ، نطعم أرباب المظاهر ونسرف في المأكل والمشرب والملبس ، ثم نشاهد عباد الله يتضورون جوعاً ولا تأخذنا بهم رحمة، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « شر الطعام طعام الوليمة يدعى اليها الاغنياء دون الفقراء » .

## التمدن الانثوي [1]

أرى فئة كالغانيات تدللا ... تميل مع الاهواء كل مميل
تخال الفتى منهم على ظلمة النهى ... لالوان ثوبيه سماء أصيل
ملول كما شاء الهوى واقتداؤه ... بمن حوله من خلة وخليل
وما وجد الاعمال يوما وانما ... ليستحسنوا فيه دلال ملول
وظن الفتى أن التمدن (انثوي) ... فتابع فيه كل ذات حليل
تماجن في أشكالها من مصبغ ... الى كل مجلو وكل صقيل
الى اللفظ حتى ما تكاد شفاهه ... تبين بلفظ منه غير نحيل

(١) نشرت في جريدة المؤيد يوم ٢٧ صفر ١٣٢٦ ( ١٩٠٨ )

الى اللحظ حتى ما تكاد جفونه تطارح لحظاً منه غير عليل
دلال جميل بالجمال مهنأ فآه عليه من دلال جميل
أولئك هم شباننا لو عرفتم وهم كل من في مصر غير قليل
مظاهر نبل نافقوا في اصطناعها ألا قبحت من صنعة لنبيل

هذا ما وصف به الرافعي شباننا وكلامه يصدق على بعض من يتأنقون في الزينة فيصففون شعورهم ويحففون خدودهم ويفتلون سبلاتهم وينغمون بأصواتهم وربما مزجوا كلامهم ببعض الالفاظ الافرنجية . ويختارون من الالبسة آخر زي من صدرة ملونة مخرمة ، صنعت من القطيفة المزركشة ، وسترة مشقوقة وسراويل ضيقة ، وخاتم ماس في اليد وعصا عقافتها من الذهب ، وحذاء ملوناً ملمعاً ، وطربوشاً مقرناً مكوياً ، وبالجملة كل ما فيه ظاهر مموه . ممن تراهم اذا جمعك بهم الاتفاق وقد عبقت منهم رائحة الطيوب والعطور ، وقد حرصوا على الازياء ، حرصهم على أعز الاشياء

التطيب والتزين والتجمل باللباس الجيد الجديد حسن في ذاته مباح عقلا وشرعا ، أحل لنا كما أحلت الطيبات ، ولكن اذا جاوز صاحبه فيه الحد كان أجدر بربات الحجال منه بالرجال لانه مشغلة عن ارتياد الفضائل والسعي في سبيل الكمال الحقيقي وناهيك بأن من شباننا من يصرفون ساعتين كل يوم في التبرج «التوالت» كانهن بعض النساء يتزين لبعولتهن

وهذا مما يسجل علينا ضعف النظر في كل ما اقتبسناه من عادات الغربيين فقد اقتدينا بسرف المسرفين منهم ولم نهتد بهدى أهل القصد والاقتصاد ، وجارياهم في التبرج والتزين بعد أن كانا غير معهودين في الشرق الا للمخنثين ، وشايعناهم على تعاطي المسكر والميسر فأضعنا آدابنا ودينا طمعاً في إحراز هذا التمدن الذي لا يقوم بزعمنا الا بالانسلاخ من وطنيتنا وعاداتنا المستحسنة واقتباس كل عادة تأتينا من طريق الافرنج .

أخذنا عاداتهم بل عادات السفلة والشعوب النازلة منهم بيننا ، وليتنا لما أخذنا ما أخذنا ميزنا بين الصحيح والزيوف والضعيف والمضعوف ، والشريف والمشروف

عميت علينا السبل فلم نقتد بامثل من جعلناهم قدوتنا فى حياتنا بل مددنا اليد الى ما وجدناه عرضاً فلم نسقط الا على الملوث القذر من العادات والاخلاق

أكثرنا من الاسراف فى الملبس مثلا حتى نسينا كل نسبة بين الدخل والخرج فامبراطورة المانيا فى أوربا وهى من جلال المكانة ما هى لا تستنكف أن تدير ألبسة كبار أولادها لصغارهم عند ماتضيق عنهم حتى لا تطرح شيئاً جزافا وهو مما يحسن الانتفاع به . والرجل منا قد يصرف على لباسه ربع دخله فيستلف ويمطل ويهون عليه مايأتى ولو باع الطين ورهن العقار ليلبس كل اسبوع بل كل يوم بذلة جديدة كأنه من نساء الاغنياء فى نيويورك لا يهدأ له بال الا أن يظهر غناه ليصدق عليه قولهم فى الامثال « أبت الدراهم الا أن تخرج أعناقها »

ماذا يقول الكاتب عن مغالاة بعض شبابنا فى الزينة واغراقهم فى السرف والترف وما تجلببوا به من عادات لا تلائم الشرق وفقره ودينه ، والغرب يشكو من بقائها بين ظهرانى أبنائه الى اليوم ، ويتمنى لو نزعت آخر جرثومة منها عنده ليتكون له مدنية تامة كاملة ، وحضارة رجولية لا نسائية

هم يفكرون ويكتبون وينصحون ، ونحن تركنا حبل آدابنا على غواربنا . ولا نبالى بما يدخل علينا من غرائبها وسخائفها ، ولكن القوم فى أوربا على ما بلغوه من أسباب التقدم مما نغبطهم على أكثره لم يفتؤا يحاربون نقصهم ويسعون الى كمالهم ونحن نحارب كمالنا ونسعى الى نقصنا .

أكتب هذا وأمامى مبحث جليل لاحد علماء التربية فى فرنسا نشره بمناسبة قيام اثنتى عشرة ألف معلمة مؤخراً فى نيويورك يطالبن حكومتها بأن تنصفهن فى الرواتب كما تنصف المعلمين لانهن يقمن بمثل الاعمال التى يقوم بها الرجال فى التربية والتعليم ، فاضطرت الحكومة الى اجابتهن الى مطالبهن ، وزادت ميزانيتها ثلاثة ملايين دولار عن مدينة نيويورك وحدها

قال : ان تسليم مقاليد التربية للنساء دون الرجال مما يؤخر لان حب التجمل ينغرس فى الصبيان كما لاحظت ذلك اللجنة المؤلفة من مئات من أساتذة الانكليز الذين انتدبهم المستر موسلى أحد أغنيائهم منذ بضع سنين للبحث عن طريقة التربية فى الولايات المتحدة ، فكتبوا فى ذلك تقريراً قالوا فيه ان من تأثير تربية

المعلمات قلة أخلاق الرجولية فى الامة الاميركانية . ولم تكن ملاحظة هذه اللجنة الاولى من نوعها بل ان غير الاميركيين كثيراً ما كانوا يدهشون مما يبدو لانظارهم من هذا القبيل فى أميركا ، ولكن القول يفلو على قدر قائله ومكانة لجنة ولسلى بمن تألفت منهم

قال : وكيف لا تحكم هذه اللجنة على الاميركان ورجالهم يمنون من وراء الغاية فى المحافظة على الست والثلاثين الف قاعدة فى مصطلحات التمدن (الاتيكيت) فيبالغون فى التأنق بلباسهم مبالغة مفرطة ، ويدققون كل التدقيق فى القيام بأقل ما تقتضيه سنة الازياء ، ويرققون ألفاظهم ترقيقاً يقربها أبداً من التكلف ، ولا ينسب ذلك الا لتسليم مقاليد التربية للمرأة . ولو استطاع المرء أن يكون تاما فى هذا المعنى لما كان فى ذلك بأس بل قد يحدث كثيراً أن المبالغة فى التزيي والمنافسة فى الحصول على صفات الظرف الذى لم تجعله الطبيعة من خصائصه تعبث بمروءته.

قال : ومن سوء أثر هذه التربية فى الاميركان ان الرجل يرى نفسه أحط من المرأة مهما تصنع لها ويرى من كرمها أنها تعطف عليه وهكذا حتى أصبح المجتمع الاميركى انثويا فيه من ضروب التكلف والغرابة أشكال وألوان اه

هذا ما قاله كبير من كبار علماء التربية فى الحكم على التربية الاميركية فاذا جاء فوصف تربيتنا أى حكم يصدر علينا يا ترى؟ تلك التربية الملفقة التى ورثناها من مربية رومية أو فتاة طليانية أو جارية زنجية أو كرجية أو بربرى ذى زبيبة أو ماجن ذى أطوار غريبة

ان قالت لجنة ولسلى بأن التمدن الاميركى أصبح انثويا فماذا تقول لو رحلت الينا وحكمت علينا بدون مشايعة لغرض سياسى ولا بدافع هوى نفسى .لا جرم انها تقول ما قاله شاعرنا الرافعى :

وظن الفتى ان التمدن انثوى  فتابع فيه كل ذات حليل

# تكريم النزاهة[1]

توفى منذ أيام رجلان عظيمان من عمال الحكومة أحدهما كامل بك والى سيواس الاسبق والثانى كامل بك الصليح رئيس محكمة استئناف سورية سابقاً. واحد حدم فى أرقى مناصب الادارة فى الولايات وطاف يمنها وحجازها وطرابلس غربها وأناضولها. والآخر بلغ أرقى مناصب القضاء فى الولايات وتقلب في اعطافها شرقاً وغرباً. فخدم كل منهما الحكومة زهاء خمس وأربعين سنة ورائده أمانته وصدقه. وتفانيه فى مسلك النزاهة والعفة

ولد هذان الموظفان الكاملان فى مدينة صيدا (الشام) وماتا فى يوم واحد فى هذه المدينة (دمشق) وشبا وشابا فى حسن الخدمة، وتشابها فى أكثر الوجوه، وماتا ولم يخلفا وراءهما من حطام الدنيا الا ما لا يكاد يرضى به من كان فى عمله بعدهما بعشر درجات من الكتاب والحساب ولكن الكاملين خلفا ثروة لا ينضب على الايام معينها. ونعنى بها كنز استقامتهما وعزة نفسيهما فعفا عن كل ما يقال له الرشاوى والهدايا والصلات من أموال الامة، وخدماها خدمة صادقة رائدها الاخلاص وسداها ولحمتها العلم والعمل الحقيقى.

كثير من الناس من يتولون من المناصب أرقاها، ويجمعون من المال أوفاها، وينالون من مراقى العز منتهاها، ولكنهم يذهبون بقبح الاحدوثة وسوء القالة، وتلعنهم القلوب اذا لم تلعنهم الالسن، وهم عند ظنهم قد عاشوا بنعمة، والحال أنهم عاشوا أشقياء مرذولين، وقضوا كذلك فنالوا الخزى فى هذه الدار وفى الدار الاخرى.

لا يقاس فى نظر التاريخ احترام الرجال بقدر ما ملكت ايمانهم، وضمت خزائنهم، بل بقدر ما انتجت عقولهم وشرفت أعمالهم، وأعظم سلوى يرتضيها المستقيم فى عمله ويؤثرها على كل فاقة، ويستعين فى سبيلها بكل صعب هو انه يحيا غير معذب الوجدان، مستقل الفكر، ويموت قرير العين، لبعده عن الخيانة والعبث بدماء الناس والعبث فى أموالهم وحقوقهم.

(١) نشرت فى جريدة الشرق يوم ١٥ صفر ١٣٣٦

يتهمنا بعض أرباب الاغراض من الجاهلين بانه يقل فينا معاشر العثمانيين المستقيم العفيف من رجال الجيش والادارة والقضاء ، وانه اذا وجد العامل الكامل بيننا يعيش مضطهداً ، ويتوخر عن قصد فى سلاسل الترقى ، والحال ان فى هذا الامر نظراً لانه لا يعقل أن تخلو الامة من كملة ، ومتى غلب فاسدوها على صالحيها فهناك الخراب المحتم . اما ان النزيه يضطهد ولا يرقى فان فى ماضى هذه الدولة وحاضرها مئات من الامثلة على خلاف ذلك ولو كانت الحال على ما يدعون ما ارتقى فقيدانا العربيان فى الولايات هذا الارتقاء ، فثبت ان للاستقامة أناساً يقدرونها قدرها ، وان النزيه العفيف من العمال يحترمه ويخافه حتى الذى هو أرقى منه فى سلسلة المراتب وتقدم الميلاد

ما اجتمعت بعامل مرتش مهما كانت درجته الا ووجدته خائفاً ذليلا صغيراً فى نفسه يصانع وينافق ، وما اجتمعت بعامل من أهل الصنف الآخر الا وقرأت عزة النفس فى وجهه والشمم والرفعة الحقيقية فى أطواره والجد غالباً عليه فى أقواله وأفعاله .

ومن الغريب ان كل من جمعوا المال وبالغوا فى اضاعة حقوق الناس ليغتنوا بزعمهم ، أصابهم الفقر قبل موتهم وبقيت أنسالهم معذبة ولم تنل حظاً من التربية وهى الى الدثور والعفاء أقرب منها الى الحياة والعلاء ، أما الذين ثبتوا على عفة أيديهم فلم يتناولوا المال الا من طريقه الذى شرع لهم وهو رواتبهم ومخصصاتهم ونفقات تنقلهم ، فقد رأيناهم عاشوا سعداء منعمين ، موسعاً عليهم وتركوا لاولادهم تربية سليمة هى أثمن من كل ثمين

مظاهر الحياة كثيرة ، والعمال أقرب الى الغرور من غيرهم لان بأيديهم قوى لا يمنعهم عن اساءة استعمالها وازع غير الوازع النفسي ، فمن غلبت شقوته سعادته ، كان من المغرورين بمظهرهم ، وعبث بالامانة التى اؤتمن عليها وأى أمانة أعظم من مصالح الناس وحقوقهم ودمائهم ؟ ومن كانت سعادته غالبة شقوته ارتضى باحقاق الحق وازهاق الباطل وعامل الرعية وهى وديعة الله بين يديه معاملة الاب المشفق الرحيم ، وهذا هو الذى يقدسه الناس ويرحمونه ويدعون له حياً وميتاً فى ظاهرهم وباطنهم والله لا يضيع عمل عامل

# الحاج مصطفى حولا [1]

ربما يستغرب القارىء ايراد هذا الاسم فى هذا المكان ولكن متى ظهر السبب بطل العجب . هو يستغرب به لان صاحبه ليس ذا مظهر دينى ولا دنيوى ولم يحرز لقب باشا ولا بك ولا افندى ولا شيخ ولا سيد لان الظاهر من حاله انه رجل من عامة المسلمين .

نعم هو مسلم هدته الفطرة الى آداب الاسلام بدون أن يدرس فى مدرسة دينية أو دنيوية ولا تشبع بمدنية الغرب ولا الشرق وما كان أبوه رب عقار ومزارع ، ولا خلف له أو أحد أقاربه أموالا اكتسبت من غير حلها من مثل وقف أو رشوة أو ظلم أو سرقة بل هو عصامى عاش من تجارته المشروعة وأملاكه القليلة

يعرف الرجال أيام المحن ولو لم تنشب الحرب ما كان رجل كهذا عاش في ساحل من سواحل البحر الابيض يقل الواردون اليه يصبح موضوع الحديث ومحل تجلة الاقلام ويتناقل خبر احسانه الخاص والعام . وكم خمل فى الحرب رجال ونبه رجال

عادة مستحكمة فى كثير من الناس أن يولوا الجميل ليقال عنهم ويروى ، ويمدوا أيديهم بالعطاء لان السخاء خلق محمود يحبب صاحبه الى القلوب وتطيب نفوس أرباب الغرائز السليمة لسماع أخباره ، بيد ان الرجل الذى ننوه به هنا انبسطت يده بالعطاء مدفوعاً الى ذلك بعامل الدين والانسانية لا طلباً لشهرة ولا ايثاراً لمظهر ولا توقعاً لدنيا مريضة يحاول نيلها

من كان يظن ان تاجراً متوسطاً من تجار ميناء طرابلس الشام يأخذ على نفسه بسائق حميته الوطنية وغيرته الدينية أن يطعم منذ أعلن النفير العام مئتى انسان كل يوم يطعمهم الملآ كل الطيبة ويفرح قلوبهم بالحلواء أحياناً وقد انفق فى هذا السبيل ارباحه زمن الحرب وجانباً من رأس ماله . وعاهد الله فى باطنه أن ينفق

(١) نشرت في جريدة الشرق يوم ١٩ ربيع الاول ١٣٣٦

على هاتين السريتين من جنده الفقراء حتى آخر درهم من عقاره ، أفلا يجب على كل انسان أن ينادي بارك الله بهذا الانسان .

ثلاث سنين ونصف مضت على الحرب العامة ونفس الحاج مصطفى الكاملة لم ينضب معين قوتها فى تعهد البائسين . وثلاث سنين ونصف على الحرب العامة ونفوس أرباب الاحتكار من التجار والمتمولين من أرباب المزارع والعقارات فى مدن الشام لم تشبع من جمع المال ولو بايذاء البلاد وساكنيها ، أفلا نقدس الاول ونحتقر الآخرين

عرفت فى دمشق وبيروت وحيفا خصوصاً أناساً ليسوا فى الطبقة العليا بغناهم يطعمون الفقراء ويلبسونهم ويؤونهم ، ومنهم أناس من أرباب المظاهر الدينية وآخرون من أشراف التجار والموسرين ، ولكنني لم يبلغني ان رجلا من مثل طبقة هذا فادى بماله ووقته فى سبيل الله وحاول أن يسد من الفقير جوعته ، ويطفىء فى قلب البائس لوعته، على صورة منظمة لم يهتد اليها العالم النحرير ، ولا الغني الشهير ، ولا الزعيم والامير .

صاحبنا لا يتوقع الا وجه الخالق وبر الخلق بما يسدي . جعل نفسه خادماً للفقراء بالعمل ، واستلذ العطاء وتخفيف البلاء ، استلذاذ تلك الطبقة التى غلظت أكبادها ، فلا ترى المصلحة الا بالجمع والمنع ، حتى يخلفوا الاموال لاعقابهم يفسقون بها ويفجرون فلا هم بها مستمتعون ، ولا الناس بها منتفعون .

يوصي الاغنياء والمتوسطون على الغالب بوصايا مختلفة بعد موتهم كأن ينشىء الموصي جامعاً أو مدرسة أو تكية أو يجري ماء أو يعبد طريقاً ، أو يتعهد طبقة مخصوصة من الناس بشيء من الدراهم يرضخ لهم بها ، أو يطعم أناساً يعينهم أو قراء فقراء يذكرهم ، أو يتامى وايامى يبرهم ، وذلك بعد أن يكون نفض يده من الحياة ، وفارق الدنيا اضطراراً لا اختياراً ، فلا يسخو بماله على الاغلب الا يوم يتجرد منه بدافع طبيعي ، ولكن الحاج مصطفى حولا يسخو بماله فى حياته يخلص به من الموت أهل البؤس والشقاء ، غير مشفق على نفسه ولا على عياله لا جرم ان مدبر الاكوان ، وخالق الانسان ، والعدل فى الخليقة من آياته ،

سيهيد له بتيسيره القرش الذي انفقه فى البقاء على حياة كثيرين الفاً ويصطفيه ويرحمه . ويبدد شمل تلك الاموال التى اكتسبها أربابها من طرق دنيئة فى الاكثر ولا رحموا بجزء ضئيل منها أهل حيهم وعشيرتهم فى زمن يموت فيه العاجزون جوعا وعريا

---

# المستشرقون ومؤتمرهم (١)

الاستشراق أو علم المشرقيات هو كما عرفه لاروس علم من العلوم الحديثة ودائرته الحالية واسعة فاذا نظرنا الى الالفاظ من حيث مفهومها نرى ان التعبير عن اللغات الشرقية لا يتناول غير اللهجات التى يتكلم بها فى شرق أوربا أى فى آسيا وفى جزء من افريقية المتصل بآسيا ولكن لفظ الاستشراق يطلق اليوم بتجوز على لغات أميركا وأفريقية الجنوبية والبلاد الشمالية وآدابها وأخلاق سكانها . فترى اللغة اليونانية الحديثة واللغة الرومانية والروسية تدرس فى مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريز كما تدرس لغات الشرق أى العربية والفارسية والتركية والصينية واليابانية والهندستانية والعبرانية والسريانية والحبشية والقبطية والانجرية . بل ان اللغة المجرية نفسها بالنظر لعلاقتها باللغة التركية والمغولية تدرس هناك كما تدرس اللغات الشرقية .

لم يدخل علم المشرقيات فى أسلوب علمى الا فى القرن التاسع عشر . وقد كان اليونان واللاتينيون يدعون اللغات الشرقية التى كانوا يعرفونها ( كالفارسية والفينيقية وغيرهما ) لغة البربر ولذا يهملون دراستها . وشاعت فى القرون الوسطى لغتان فقط من لغات الشرق بين العلماء وهما اللغة العبرية التى كانت تعتبر لغة الانسانية الاصلية واللغة العربية التى كانت مهمة لكثرة البشر الذين يتكلمون بها ولشهرة فلاسفة الاسلام أمثال ابن رشد وابن سينا ولذلك انشىء فى باريز منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد درس عام لتدريس اللغة العربية

(١) نشرت فى المجلد الثامن من مجلة المقتبس ( ١٩١٤ )

ثم ان المذهب البرتستانتى توخى البحث عن النص الاصلى للتوراة فحمل أشياعه على درس العبرية والكلدانية والسريانية. وأنشأ بعد ذلك البابا غريغوريوس الثالث عشر وأوربانوس الثامن دروساً لتعليم اللهجات الشرقية بالعمل ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية وفى سنة ١٦٢٧ أنشئت مدرسة انتشار الايمان . وطفق المبشرون منذ ذلك العهد يأتون بالآثار النفيسة لخدمة الدروس الشرقية . ونشر اليسوعيون فى القرن الثامن عشر فى العالم الغربى مدنية الصين واليابان ولغتيهما. وأنشأ الوزير كولبر فى فرنسا مدرسة الشبان لتعليم اللغات قاصداً بها تخريج تراجمة تستخدمهم حكومتهم فى الشرق وأنشأوا يدرسون اللغة الفارسية والتركية وانتشرت القصص والحكايات الشرقية أمثال قصة ألف ليلة وليلة والوسائل الفارسية وغيرها ثم ان فتح فرنسا وانكلترا للهند قد دعا الى اكتشاف اللغة السنسكريتية

وبعد نحو عشر سنين تأسست طريقة نحو المقابلة فدخل درس اللغات فى طور جديد حسن الاساليب وفى الجزء الاخير من القرن الثامن عشر اكتشف انكتيل دوپرون اللغة الزندية والبهلوية وكان من حملة بونابرت على مصر «١٧٩٨ — ١٧٩٩ » أن بدأ بها دور السياحات العلمية الكبرى التى اشتهر بها القرن التاسع عشر وجىء الى أوربا من مدينة رشيد فى مصر بالحجر المشهور وكان حل خطه مبدأ درس الآثار المصرية وانحلت لغات دثرت منذ ألوف من السنين كاللغة الاشورية . وشرعت الحكومات تنفق على البعثات العلمية وتؤسس دروساً لتعلم تلك الابحاث واللغات فترى فرنسا تعلم اللغات الشرقية الحية فى مدرسة خاصة لذلك كما ان للغات الشرقية القديمة دروساً فى كوليج دى فرانس « مدرسة فرنسا » وكذلك فى مدرسة الدروس العليا فى الكليات . ومن أعظم العلماء الذين ساعدوا على الاستشراق فى القرن التاسع عشر شامبوليون « فى الآثار المصرية» واوبرت ولفورمان وراولنسون وهنكس « فى الآثار الاشورية » وبورنوف وجايمس دار مستتر ومولر ولاسن « فى الآثار الهندية » وسانيسلاس جولين « فى الآثار الصينية »

وكانت رغبة الاوربيين أولا فى تعلم اللغات الشرقية عن باعث دينى فقد

قضى مجمع فينا سنة ١٣١١ م « المقتبس م ٧ ص ٦٩٥ » وكان برئاسة اكلمنتس الخامس أن تؤسس فى باريز واكسفورد وبولون وصلمنكة دروس عربية وعبرانية وكلدانية لتخريج وعاظ وأهل جدل أشداء لتنصير المسلمين واليهود وأنشأ الفرنسيسكانيون والدومينيكانيون من الرهبنات الكبرى فى أديارهم دروساً فى هذه اللغات فاصبحت ايطاليا مهد حركة نجحت فى المشرقيات وأخذوا بنوع خاص يدرسون العبرية للتعمق فى فهم أسرار التوراة وتنصير اليهود واللغة العربية لتنصير المسلمين يأخذون العبرية عن أعلم العلماء الربانيين والعربية عن أناس من المسلمين أو من السوريين الموارنة أمثال بنى السمعانى ومن مدارس ايطاليا نشأ العلماء الاول في اللغات القبطية والحبشية والاسحرية ولكن دراسة اللغة العربية بقيت الحاكمة المتحكمة فى شبه جزيرة ايطاليا فكان ينظر الى تعلمها انه من الحاجات الماسة لكل تجار المدن البحرية كالبندقية وجنوة ونابل وبيزا وظلت اللغة العربية مألوفة فى عدة أماكن من ايطاليا الجنوبية عقيب احتلال العرب صقلية فكانت فى بلاط ملوك تلك الاصقاع لغة العلم العالى والشعر والادب

كانت رومية أول مدينة فى العالم طبع فيها كتاب عربى عقيب اختراع الطباعة وهو قانون ابن سينا وظلت حركة المشرقيات تختلف ضعفاً وقوة فى بلاد الطليان بحسب الحكومات وهم الافراد والمقصد الاصلى دينى والعلميات بالعرض. وكان لأسرة ميديسيس فضل على الآداب العربية كما لها فضل على الشعر والموسيقى والتصوير والهندسة

وفى أواسط القرن الثامن عشر لما أخذت أوربا تتحفز لاستعمار الشرق أخذ علماؤها يبحثون فى تأليف جمعيات لهذه الغاية فانشئت جمعية العلوم والفنون في جاوة (١٧٧٨) والجمعية الآسياوية فى البنغال (١٧٨٤) والجمعية الآسياوية فى بومباى (١٨٠٥) وأنشئت منذ ذاك العهد فى أوربا وأميركا عدة جمعيات للمستشرقين وأقدمها عهداً الجمعية الآسياوية فى باريز التى أسست سنة ١٨٢٢ بمعرفة شيخ المستشرقين من الفرنسيس سلفستر ودى ساسى وهو أعظم من خدم اللغة العربية من الاوربيين والفرنسيس خاصة وربما كان أعظم مستشرق نبغ ونفع (راجع كتابنا غرائب الغرب) فانشأت هذه الجمعية المجلة الآسياوية وهى خاصة

بلغات الشرق وتاريخه وعلومه وآثاره تصدر مرة كل شهرين فيتألف منها مجلدان كل سنة ومن حواها فكأنما حوى أعظم مكتبة فى هذه الابحاث الجليلة

تخرج فى مدرسة اللغات الحية فى باريز كثير من مستشرقي الفرنسيس والالمان والطليان والسويسريين وأنشأت معظم عواصم أوربا مدارس على مثالها وان سبقت هولاندة فكانت أول من أسس جمعية شرقية فى باتافيا كما تقدم سنة ١٧٧٨ وكانت مطبعة ليدن الشرقية أقدم مطبعة طبعت الامهات من كتب المشارقة والعرب منهم خاصة وذلك منذ زهاء ثلثمائة سنة

أنشأ المستشرقون عدة جمعيات فى أوربا وأسسوا عدة مطابع شرقية وطبعوا بها ألوفاً من كتب الشرق ولا سيما اللغة العربية فان ما طبع من أمهاتها عندهم هو القسم المهم من كتبنا العلمية والتاريخية والادبية وما زالت الكتب التى طبعتها مطابع باريز واكسفورد ولندن وليدن وغوتنغن وليبسيك ورومية ومجريط وغيرها من حواضر العلم والمدنية فى أوربا باللغات العربية هى المفخر الذى يحق لمدنية القرن التاسع عشر والعشرين فى ديار الغرب أن تباهى به الاعصار والامصار

وما برحت أسماء دي ساسى ووستنفيلد وفلوغل وريسك وبوركهار وكارليل وكاترمير ودى سلان وغوليوس وشولتنس واربنيوس وهيتسما وشيد ودى بومباى ونيبوهر وزوزاريو وكولنبرك وجنستون وستونتن وفين وهوغتن وهامر وراز موسن وفلمت وبيبر ودى روسى وايفلد وغابلنتس ورودیغر وسيدليو وكوسان دى برسفال وجوبرت وروزنمول وكلابروت وهابخت وبولس وفراهن ومهرن وهماكر وفرينل ودى لاغرانج ودى فرجه ورينو ومونك وبرنيه وكمباريل وبرون وموله وكازميرسكى ووفريتاغ وكسفارتن ووابك وبرنستين وارنلد ووتستشتين وفتزر وفولف وهاربوكر وبورغستال وجوينبول وروردا وفايرس وكورتون وتاسوليس وجونس وغوتوالد وكولسون وكريستيانوفتش وخانيكوف وكاينكوس وكودرا وموهل وبلن ودى تاسى وسولسى وايفلد وديمانج وشرموا وبوتجانوف وبولديراف وسيانكوفسكى وسافلياف وغريغوريان وبافسكى ونفروتسكى وبرازين وسبنرجر وتورنبرغ وخانيكوف ودوزى

ووريخت — ما برحت أسماء هؤلاء الرجال تذكر بالحمد ويطلب لها ثواب عملها

هؤلاء بعض أئمة المستشرقين فى القرن التاسع عشر من الالمانيين والنمساويين والهولانديين والفرنسويين والايطاليين والروسيين والانكليز والاسبانيين والدانيمركيين والاسوجيين والبولونيين والبلجيكيين والاميركيين[1] ولو جئنا نعدد مشاهيرهم فى هذا الربع الاول من القرن العشرين لطال بنا المطال ومن مشاهير شيوخهم بروكلمان وولهاوزن وغويدى وغولدصهير وهوار وبراون ومرجليوث وفبرى وهوتسما وباسه وزترستين وسكيباپارللى ونالليتو وهوداس ودرانبرغ ونيكلسون وموسل وسيبولد وهور وفيتز وبيكر وهرتمن ودي فو وموتلنسكى ولتمان ولامنس ومسنيون وهرغرونى ودى كوى وآمارى وكاركسماريك وفولرس وشادوبويروارنولدورسكاودامس وجيزوبارتولدومورتمان ولشاتليه وبوفا وكاباتون وكور وهاليفى وماسبرو وشيفر ومكدوبل ودوفال ودى منار وبارت وسينار وليفى وكازانوفا وروزن وشوفين وشافان ودوسو ومونتيه وسبيروو وشيل وماهفى ودلبروك وكولنيون ودى غوبرناتيس وبزنبرجر ودافيدس وهوبت وكوهن وكايتانى ولامبروز ونافيل واولدنبرغ. هؤلاء بعض من اشتهروا بآثارهم من علماء المشرقيات واتوا على الخاطر ساعة كتابة هذه المجالة وهناك مئات منهم المشهور وآخر الخامل وما منهم ومن سبقوهم من الاعلام الا الذى نشر الآثار النافعة بالعربية أو منقولة من العربية أو عن احدى اللغات الشرقية وفيهم من نشر عشرات من المصنفات كانت بصحتها وفهارسها مادة الآداب العربية وخدم بها بلاده أولا وهذه اللغة الشريفة ثانياً ومنهم من ينشر الكتاب لقدماء مؤلفى العرب بنصه ويعلق عليه حواشى باللاتينية لغة العلماء أو يترجمه الى اللاتينة وينشره بهذه اللغة فقط ومنهم من يعلق عليه أو يترجمه بلغته كالهولاندية والالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية والاسبانية والروسية والسويدية ولمستشرقي كل أمة كبرى عدة جمعيات مهمة راقية واقدمها جمعية باريز وتلتها جمعيات المانيا والاستشراق أرقي مايكون في بلاد الجرمان الآن والى علماء المشرقيات

(١) جاء الاميركيون متأخرين في الدروس الشرقية ومع هذا فان فيهم مستشرقين نشروا كتباً وآثاراً دلت على فضل ومعرفة بالعربية وآدابها وتاريخها

منهم ومن الهولانديين يعزى الفضل الاكبر فى نشراهم كتب اجدادنا فى العلم والتاريخ والجغرافيا والادب واللغة والدين . والجرمانيون والهولانديون اقدر الاوربيين على النطق بالعربية وبالنظر لاختصاصهم أو اخصائهم جاء منهم أئمة قل نبوغ أمثالهم فى الامم الاخرى ومجلة المستشرقين الالمانية راقية جدا وتتألف منها مكتبة مهمة بحثت كالمجلة الآسياوية الافرنسية في علوم الشرق وآدابه ولغاته ولم تترك شاردة الا احصتها ولا مبحثا الا محصته وتجئ بعدها مجلة المستشرقين النمساويين ومجلة المستشرقين الانكليز والطليان وغيرهم من أمم الحضارة والولوع بالمشرقيات

وقد اعتاد المشتغلون بالمشرقيات منذ سنة ١٨٧٣ أن يعقدوا مؤتمراً لهم يحضره جلة منهم ويكون مقره فى احدى العواصم المشهورة وتنتدب الحكومات من يمثلها فى تلك المؤتمرات فتتلى فيها الخطب المفيدة والمحاضرات التى تنم عن فضل بحث ودرس فى لغات الشرق وعلومه وتاريخه واجتماعه ويتنافس أئمة هذا الشأن فى هذا السبيل المحمود وكانت الحكومة العثمانية والحكومة المصرية تنتدب أناساً يمثلونها فى المؤتمرات التى عقدت حتى الآن وكان بعضهم من العلماء والادباء

وقد عقد المؤتمر الاول سنة ١٨٧٣ في باريز والثانى سنة ١٨٧٦ فى لندن والثالث سنة ١٨٧٧ فى بطرسبرج والرابع سنة ١٨٧٨ فى فلورنسة والخامس سنة ١٨٨١ فى برلين والسادس سنة ١٨٨٣ فى ليدن والسابع سنة ١٨٨٦ فى فيناوالثامن سنة ١٨٨٩ فى استوكهلم والتاسع سنة ١٨٩٢ فى لندرا والعاشر سنة ١٨٩٤ فى جنيف والحادى عشر سنة ١٨٩٧ في باريز والثانى عشر سنة ١٨٩٩ فى رومية والثالث عشر سنة ١٩٠٢ فى هامبورغ والرابع عشر سنة ١٩٠٥ فى الجزائر والخامس عشر سنة ١٩٠٩ فى كوبنهاغ والسادس عشر سنة ١٩١٢ فى آثينة ويعقد السابع عشر سنة ١٩١٥ فى أكسفورد

وسيكون هذا المؤتمر برئاسة رئيس كلية اكسفورد وعهد برئاسة اللجنة المنظمة الى الاستاذ مكدونلد واللجنة العامة مؤلفة من أساتذة اللغات الشرقية أو من مدارس الدروس الشرقية فى كليات ابردين وبريستول وكمبردج ودوبلين وأديمبرغ وغلاسكو وليفربول ولندرا ومنشستر ووسانت اندري وبلاد الغال فى بريطانيا العظمى ومن لجان الجمعيات العلمية الانكليزية مثل الجمعية الافريقية

والجمعية التوراتية الأثرية والجمعية البوذية وجمعية آسيا الوسطى والجمعية الصينية وجمعية آثار مصر والجمعية اليابانية وجمعية الابحاث الفلسطينية والجمعية الفارسية والجمعية الاسياوية الملكية وغيرها وستبدأ مداولات المؤتمر يوم ١٣ ايلول ١٩١٥ وتنتهى ١٨ منه وستكون ابحاثه فى علم تعريف الانسان والآثار وفى علم الآثار الاشورية وفى آثار آسيا الوسطي والشرق الاقصى ومصر وأفريقية والهند واللغات والآداب الاسلامية وفى اللغات السامية والآداب السامية وفى آسيا الغربية وإيران وتكون اللغة التى يجوز استخدامها الانكليزية أو الافرنسية أو الالمانية أو الايطالية ومن أراد أن يتكلم بلغة غير هذه وجب عليه أن يطلب الترخيص له بذلك من رئيس اللجنة التى هو أحد أعضائها أو يريد التكلم فيها

هذا مانشرناه فى المجلد الثامن من مجلة المقتبس بيد أن الحرب العالمية نشأت ولم يعقد المؤتمر فيما نظن وعقد علماء المشرقيات من الالمان ومن والاهم من النمساويين والهولنديين والسكانديناويين مؤتمراتهم بعد الهدنة فى مدينة ليبسيك لم تحضره أعضاء الحلفاء من الانكليز والفرنسيس وغيرهم وكانت السياسة مانعة من اجتماع العلماء فقبحت السياسة .

## الالقاب العلمية [1]

ليس فى الايدى مستند يركن اليه فى تاريخ حدوث الالقاب العلمية فى الملة الاسلامية والظاهر انها حدثت فى النصف الاخير من عهد بنى العباس وشاعت وتأصلت زمن ملوك الطوائف ثم على عهد الدولتين الجركسية والعثمانية فى هذه الديار أيام أصبح العلم عبارة عن رسوم ، والعلماء هم الذين يقر بهم الملوك والحكام ولو كانوا أجهل من قاضى جبل ، بل أصبح أمر الالقاب أقرب الى الهزل منه الى الجد فصارت جملة « اعلم العلماء المحققين » تطلق على كل صعلوك نال منصبه فى القضاء أو الافتاء أو التدريس بالشفاعة أو القرابة أو الأرث لان العلم فى الثلاثة

(١) نشرت فى المجلد السابع من مجلة المقتبس

القرون الاخيرة أصبح يورث كما يورث الماعون والخرثى ، والعقار والمزرعة

نعم غدت الالقاب العلمية التى لم تطلق على ابى حامد الغزالى وأبى عمرو الجاحظ وأبى الوليد بن رشد وأبى النصر الفارابى الابشق الانفس تطلق على من يحتاجون أن يرجعوا الى الكتاب بل على عامة ليس لهم من أدوات العلم الا انهم اعتموا بالبياض ولبسوا الجبة على الزى المتعارف لهم

وان الفاظ العالم والعلامة والامام والربانى [1] والحبر [2] التى لم تطلق على اكثر حملة الشريعة والعلم أيام نضارة الدين أصبحت تطلق على الجهلاء لعهدنا بعد ان كانت هذه الالفاظ تجعل لافراد فى الامة امتازوا ميزة ظاهرة بعقولهم وعلومهم ، وقد تستعرض القطر بل الاقطار بل العصر والاعصار ولا تجد واحدا استحق هذه الالقاب وصرت اذا دخلت فى عهدنا الى مدينة صغيرة كطرابلس الشام تظن نفسك وجميع من لهم شىء من الذكر قليل أو تولوا منصباً ولو حقيراً فى خدمة الحكومة يعطون لقب « العالم الفاضل » و « العلامة الفاضل » و « الامام المحدث » بدون نكير

كان يقال لجبير بن زهير الحضرمى « عالم أهل الشام » وللخليل بن احمد « علامة البصرة » ولمالك بن أنس « امام دار الهجرة » ولعبد الله بن عباس « ربانى هذه الامة » أما اليوم فان الفاظ عالم وعلامة وامام تطلق على المخرقين والمتنطعين الذين لم ينفعوا الامة بشىء ، فقد كان يلقب بالعلامة الاول قطب الدين الشيرازى ، كما يطلق لقب العلامة الثانى على سعد الدين التفتازانى على نحو ما أطلق على ارسطو لقب المعلم الاول وعلى الفارابى لقب المعلم الثانى

تشدد القوم فى اطلاق القاب التفخيم حتى على العلماء صيانة لالقابهم من الابتذال فرأينا العصام فى حاشيته على الجامى لا يوافق الجامى باطلاقه على ابن الحاجب لفظ « العلامة المشتهر فى المشارق والمغارب » فقال ان فى وصف ابن

---

(١) الربانى العالم المعلم الذى يغذو الناس بصغار العلوم قبل كبارها وقال محمد بن على بن الحنيفة لما مات عبد الله بن عباس اليوم مات ربانى هذه الامة وروى عن على انه قال الناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق والربانى العالم والراسخ فى العلم والدين أو العالم العامل أو العالى الدرجة فى العلم وقيل الربانى المتأله العارف بالله تعالى (٢) قال ابن سيده فى المخصص : ابن السكيت الحبر والحبر ( بكسر الحاء وفتحها ) العالم وقال صاحب العين هو العالم من علماء الديانة مسلماً كان أو ذميا بعد ان يكون كتابيا والجمع أحبار

الحاجب بالعلامة نظراً لان هذا اللفظ انما يناسب فيما بين العلماء من جمع جميع أقسام العلوم كما هو حقه من العلوم العقلية والنقلية وليس ابن الحاجب الا من العلماء فى العلوم النقلية . ولذا خص من بين العلماء قطب الملة والدين الشيرازى بالعلامة حيث سبق العلماء كلهم فى جميع أقسام العلوم

هكذا كان أدب سلفنا أما اليوم فقد استرسل عباد المظاهر فى هـذا الشأن فسموا الى تلك الالقاب الشريفة التى لم يجوزوا اطلاقها على مثل ابن الحاجب الامام المحقق فى فنه وبلغت الحال ببعضهم ان صاروا يكتبونها بأيديهم عن أنفسهم كأن العلامية والعالمية والامامية لا تثبت فى الاذهان الا بمثل هذا العمل

وعندنا ان الاحرى بمن تدور معارفه على الفقه وحده أن يسمى فقيها ان كان ممن برزوا حقيقة فى أصوله وفروعه ، ومن اقتصر على الاصول وحده أن يسمى أصوليا ومن غلب عليه علم الحديث أن يقال عنه حديثيا والا فان كلمة عالم لا تقال الا لمن يعمل بما يعلم كما قال بعضهم وان شئت فقل لمن يظهر فيه أثره ويمتزج باجزاء نفسه أى امتزاج قال ابن جنى : لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كأنه غريزة ولم يكن على أول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلماً لا عالماً

جرت على هذه القاعدة الامم الراقية قديماً وأمم المدنية الحديثة لعهدنا فلم يطلق على سقراط وأفلاطون وأرسطو الفلاسفة ألقاب العلماء فى بلاد اليونان الا بعد ان قضى كل منهم سنين فى التعلم وسنين فى التعليم وهكذا رأينا الامم الحديثة لم تطلق على نيوتن وهكسلى وكونت وكانت وكيتى اسم عالم الا بعد ان درسوا الدروس النظامية كلها وبرزوا على رجال عصرهم بفنون مخصوصة أبرزوا فيها آثار علمهم وأثروا فى محيطهم

ومن عجيب الاخلاق ان من ينتسبون لشىء من علوم الدين فى عهدنا يعز عليهم الا أن تبقى الفاظ العالم والمحقق والعلامة محصورة باهل طبقتهم كأن من يعلم الهندسة أو الطب أو الحقوق أو الصحافة أو السياسة لا يستحق أن يعد فى العالمين ولو أيدت علمه أمثلة كثيرة يريدون أن تبقى هذه الالفاظ لهم وكذلك بعض المشتغلين بهذه العلوم الدنيوية يعز عليهم أن يطلقوا الالقاب العلمية على من لا يعلمون علومهم فى حين رأينا صاحب ارشاد القاصد وصاحب كشف الظنون عدا العلوم كلها دينية

ودنيوية وسمياها كلها علوماً حتى السحر والطلسمات والشعبذة فذكر الاول من أنواعها مئة نوع والثانى مئة وخمسين نوعاً

وغريب كيف أخرج بعضهم فى القديم اسحق بن ابراهيم الموصلى من سلك الفقهاء وكان أحرى أن يعد بينهم لانه يلحن الانغام ويخترع ضروب الغناء ويشتغل بآلات الطرب مع انه ليس دون علماء عصره بعلومهم ولكن غلب عليه الغناء فعدوه فى الندماء كما غلب الشعر على بعضهم فعدوه فى الشعراء أمثال أبى نواس وما هو فى الحقيقة الا من كبار علماء العربية

وانا اذا استقرينا التاريخ على اختلاف العصور نجد أن المنصفين من المؤرخين يذكرون العالمين بغير العلوم الدينية كما يذكرون علماء الدين لانهم كلهم أعضاء نافعون فى المجتمع فقد كان خالد بن يزيد الاموي من أهل القرن الاول عالم قريش بالكيمياء والطب بصيراً بهذين العلمين وكان أبو الفضل الحارثى من أهل القرن الخامس عالماً بالهندسة والفلك والحساب والتقسيمات والهيئة ونقش الرخام وضرب الخيط والطب ومحمد القيسرانى من أهل القرن الخامس أيضاً عالماً بالمساحة والميقات والفلك ورضوان الخراسانى من أهله أيضاً عالماً بالرياضيات وأبو المجد ابن أبي الحكم من أهل السادس عالماً بالطب والهندسة والنجوم والموسيقى والعدد والغناء والايقاع والزمر وسائر الآلات عمل ارغناً وبالغ فى اتقانه وكان ابن الصلاح من أهل السادس عالماً بالحكمة متميزاً بالطب وموفق الدين بن المطران من السادس عالما بالطب والفلسفة وابن المؤيد العرضى ورفيع الدين الجيلى وعز الدين الاربلى من أهل السابع علماء بالفلسفة والرياضيات

وهكذا لو استقصينا كتب التراجم لعثرنا من أسماء المشتغلين بغير العلوم الدينية على سلسلة طويلة وكلهم أطلق عليهم اسم العالم والمحقق والامام والعلامة على رغم أنوف المكابرين وذكرتهم الاعصار بآثارهم أكثر ممن جعلوا مناصب الدين والقاب سبباً الى الدنيا ونيل الحظوة من العامة والزلفى من السلاطين والامراء وقد رأينا بعض المشتغلين بعلوم الشريعة لعهدنا يتخلصون من اطلاق لفظ عالم وعلامة على من لم يتزى بزيهم الخاص بأن يطلقوا عليه اسم الكاتب على ان لفظة كاتب التى يحتقرونها قل فى المعدودين من يستحقها قال ضياء الدين بن الاثير

فى المثل السائر ينبغى للكاتب أن يتعلق بكل علم حتى قيل كل ذى علم يسوغ له أن ينسب نفسه اليه فيقال فلان النحوى وفلان الفقيه وفلان المتكلم ولا يسوغ له أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول فلان الكاتب وذلك لما يفتقر اليه من الخوض فى كل فن اه

وهذا التحكم البارد فى الخط ممن اخصوا فى بعض الفنون التى يجهلها أكثر المتعممين ولا يعدونها علما فى نظرهم تخرج كثيراً من الأئمة من عداد العلماء بحسب عرفهم ممن لم تكن الكتابة الا من جملة ما يعلمون أمثال الجاحظ فانه بحسب عرفهم كاتب فقط لانه مجيد فى الانشاء للغاية وكذلك القاضى الفاضل وابن خلدون وابن فضل الله وأبو الفدا وغيرهم من مشاهير العلماء الذين كانوا أئمة فى الانشاء هذا لان أولئك الاعلام لم يؤلفوا أولم يريدوا أن يؤلفوا فى الفقه والاصول والكلام والحديث على حين ورد فى الكتاب العزيز « يعلمه علماء بنى اسرائيل » فاطلق تعالى عليهم لفظ علماء وجاء فيه « والذين أوتوا العلم درجات » قال الراغب ان هذا تنبيه منه تعالى على تفاوت منازل العلوم وتفاوت أربابها

ولقد شاهدنا مايضحك من تحكم بعض أرباب الصحف السيارة فى الالقاب العلمية حتى آل الامر ببعض الفضلاء أن يستنكفوا من ذكر أسمائهم بين أناس لا يلحقون غبارهم بحال لان منشىء كل صحيفة يعطى من الالقاب لمن يحبه مايستحى العاقل من اطلاقه على أفضل أهل العصر ويمنع ذلك عن المستحق يريد بذلك اسقاطه حتى قال بعضهم : من العلامة أن لاتكون للمرء علامة ، فما دامت لفظة علامة تطلق على المغفلين من الطلبة فأجدر بمن يستحقون هذه اللفظة أن يزهدوا فيها وهكذا لفظ « الاستاذ » و « المعلم » و « الفاضل » وهذه اللفظة اليوم تطلق على تسعة أعشار من يقرأون ويكتبون .

وبعد فان سلسلة الارتقاء وسلسلة الانحطاط نمط واحد يتبع بعضها بعضاً فى كل أمة ، والتغالى فى الالقاب من جملة تعلق الامة بل من يطلق عليهم الخاصة منها بالقشور دون اللباب . وما أجدر أرباب الصحف والمجلات أن يتخلوا عن هذه الألقاب التى لا ميزان لها ولا مقياس وأن يذكروا الاسماء مجردة كما هو اصطلاح الامم الراقية كالانكليز والاميركان والفرنسيس والالمان بل كما كان

اصطلاح أجدادنا العرب صدر الاسلام والجديرون بالوصف تنم أوصافهم عنهم من مثل التعليم زمناً وتخريج طلبة راقين أو الاجادة فى التأليف وغير ذلك من سمات الفضل والعلم قال المقدسى أن مراتب السادات مثل جليل وفاضل رسم الرسائل لا رسم التصانيف . والجرائد والمجلات كالكتب لا تخرج عن حد التأليف فى صورة أخرى ولذا وجب ان تعرى من ألفاظ التمجيد ولا سيما إطلاق الالقاب العلمية على من تذكرهم لان فى ذلك تضليلا للعقول واستهزاء بمقادير أهل الاقدار

---

# التمييز فى الالبسة [1]

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف فى الافكار كما تراه فى الاديان بل تراه فى اختلاف الهواء والماء . وقد وفق الغرب الى توحيد البسة أهله فى القرون الاخيرة أما الشرق فلم يزل بتخالفه فى ذلك على نحو ما كان عليه فى القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية

اختلاف المشارقة فى البسهم قديم فقد كان للقضاة وللاجناد وللعلماء والعامة ألبسة خاصة بهم بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الاقاليم ودرست المدنيات .

وكان لاهل الذمة فى الاسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التى دعا اليها العرف لا الدين وليس فى الدين ما يدل على تميز المسلمين بلباس خاص فقد اشترط الخليفة الثانى فى كتاب الجزية الذى كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه ولما تبسط الفاتحون فى مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما فى نهاية الرتبة فى الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسهم فان كان يهوديا عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وان كان نصرانياً عمل فى وسطه زناراً أو علق فى حلقه صليباً وان كانت امرأة لبست خفين أحدهما أبيض والآخر اسود واذا عبر الذمى الى الحمام ينبغى أن يكون

(١) نشرت فى المجلد الرابع من مجلة المقتبس

فى حلقه صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليختبر عن غيره

وفى كتاب الخراج لابى يوسف أن لا يترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين فى لباسه ولا في مركبه ولا فى هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا فى أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده فى وسطه كل واحد منهم وبأن تكون قلانسهم مضربة قال وان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أى أن تكون قلانسهم طوالا مضربة وروى عن عمر بن عبد العزيز انه كتب الى عامل له فلا يلبس نصرانى قباء ولاثوب خز ولا عصب وقد ذكر لى أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمرى لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك ان ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة

وفيما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين فى العصور الاسلامية وما هذا الاختلاف فى الحقيقة ناتج الا من التحكم البارد غالباً . قال ابن الاثير فى حوادث سنة ٢٣٥ ان المتوكل أمر أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعمل كرتين فى مؤخر السروج وعمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الاخرى ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً ومنعهم من لبس المناطق وأمرهم بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ونهى أن يستعان بهم فى أعمال السلطان ولا يعلمهم مسلم وأن يظهروا فى شعانينهم صليباً وأن يستعملوا فى الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الارض وكتب فى ذلك الى الآفاق .

وقال الذهبى فى حوادث ٣٩٨ وفيها هدم الحاكم كنيسة القمامة بالقدس وكانت فيها أموال وجواهر ما لا يوصف والزم النصارى بتعليق صلبان كبار على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلا بالدمشقى من خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزنها رطل ونصف وأن يشدوا الاجراس فى رقابهم عند دخول الحمامات قال والزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر

والشام أهل الذمة بالصلبان فى أعناقهم والبس اليهود العمائم السود نكاية واهنة لبنى العباس قال ابن خلكان وفى سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود الا الخيابرة يلبس العمائم السود وان تحمل النصارى فى أعناقهم الصلبان مايكون طوله ذراعا ووزنه خمسة أرطال وأن تحمل اليهود فى أعناقهم قرامى الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون فى أعناق النصارى اذا دخلوا الحمام الصلبان وفى أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين . قلنا وكان فى الحاكم لوثة وجنة يأمر اليوم بأمر فينهى عنه فى الغد على ما قال المؤرخون .

وذكر الذهبى فى حوادث سنة سبعمائة ان النصارى واليهود البست بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر ذلك . وسنة ٧٣٤ الزمت النصارى واليهود ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود . وروي لسان الدين بن الخطيب ان اسماعيل ابن فرج الخزرجى من ملوك الاندلس اشتهر فى اقامة الحدود واراقة المسكرات وحظر تجلى القينات للرجال فى الولائم وقصر طرهن على أجناسهن من الناس وأخذ لليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم واشارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة التى أمر بها الشرع فى الخطاب والطرق وهو شواش ( جمع شاشية ) أصفر .

وذكر صاحب المعجب فى سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن انه أمر فى آخر أيامه أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الي تحت آذانهم فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية ايامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبد الله الى ان غيره أبو عبد الله بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون ان شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزى الى وقتنا هذا وهو سنه ٦٢١ وانما حمل أبا يوسف على صنعه من أفرادهم بهذا الزى وتمييزه اياهم به شكه فى اسلامهم وكان يقول لوصح عندى اسلامهم اتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ولوصح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين

ولكني متردد فى أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة انما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون فى المساجد ويقرءون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدرهم وتحويه بيوتهم اه

وقال ابن أبى أصيبعة : حدثنى الشيخ موفق الدين بن البورى الكاتب النصرانى قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك أتى الى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصرانى وهو شاب على رأسه كوفيه وتخفيفة صغيرة وهو لابس جوخة ملوطة زرقاء زى أطباء الفرنج وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد اليه لعله ينفعه فقال له : هذا الزى الذى أنت عليه ما يمشى لك به حال فى الطب فى هذه الدولة بين المسلمين وانما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الاطباء فى بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلا وأمره أن يلبسها . وكان والد المهذب المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه فى بدء أمره بمصر انه نصرانى وانه يتصرف فى ( عمله ) بلا غيار نهاه وأمره بغيار النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فاسلموا على يده فاقره على ديوانه مدة ثم صرفه عنه فقال فيه ابن الدروى

لم يسلم الشيخ الخطـ ـير لرغبة فى دين احمد
بل ظن ان محاله يبقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنـ ـه فدينه فالعود احمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وأن يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليمنى

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى غياراً شد أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا

هذا ماكان عليه الاختلاف فى الازياء بين أهل الوطن الواحد وأكثره كما ترى ناشىء من ملوك أو فقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجد في الاسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكموا هذه التحكمات والله أعلم اه

# السلطتان [1]

رحم الله السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ما كان أعقله فى الملوك وأبصره بعواقب الامور فقد كان أول العارفين بأن مزج الدين بالدنيا من أضر ما ينهك قوى الامم فتفقد الصفقتين ولا تفوز بالحسنيين . ولذلك كان لا يعتمد فى تدبير ملكه وقتال عدوه الا على أهل الرأى من الساسة فى زمنه ممن استخلصهم فى تدبير ملكه كالقاضى الفاضل ومن كان على شاكلته

ولطالما أراده فقهاء عصره على أن يعمل بمشوراتهم فى زحزحة الصليبيين عن البلاد ولو وجدوا منه مصغياً لأقوالهم لالتوى عليه القصد ولما وفق الى ما لم يوفق اليه سلطان قبله ولا بعده من دفع صائل تلك الجيوش الجرارة التى انكفأت على الشرق الادنى واستباحته واستصفته أو كادت . والله أعلم ماذا كان مصير الحرمين الشريفين وبيت المقدس الآن لو كانت دخلت أصابع السياسة الخرقاء فى طرد أهل الصليب عن مصر والشام

كان صلاح الدين صلاحاً للدين والدنيا يعرف من يعمل بآرائهم من رجاله ولذلك ترك الجامدين من أدعياء العلم جانباً يغدق عليهم من مكارمه ما يقطع به ألسنتهم ويريحهم من عناء الطلب والنصب ، واذا رفعوا رؤوسهم وأشاروا اليه بأنه نبذ مشوراتهم ظهريا أشار اليهم بلسان الحال بأن السياسة ليست من شأنهم وأنه يكفيهم أن يحسنوا الاضطلاع بشؤونهم الخاصة وما يفرض عليهم المجتمع العمل به وهم اذا جودوه وأحسنوه يحسنون للامة كل الاحسان

هكذا كان السلطان صلاح الدين فى القرون الوسطى يعرف من أين تؤكل الكتف فى فصل السلطتين الدينية عن الدنيوية . وسلطان المغرب الاقصى الحالى وهو فى هذا العصر وناهيك به يقيم على أبواب أوربا وتؤثر فيه عوامل أرباب السلطة الدينية من اضراب ماء العينين ومن لف لفه من مشايخ الطرق

(١) نشرت فى جريدة المؤيد يوم ١٣ رجب سنة ١٣٢٠ (١٩٠٧)

وزعانفة المتفقهة وغوغاء المخرقين ممن يدعون الكشف والسحر والطلسمات

ما نظن أن غلو مولاى عبد العزيز فى الافضال على أولئك الجامدين وتقريبهم منه والعمل بمشوراتهم ناتج عن تدين حقيقى فالله أعلم بما هنالك . ولكن تلك الفئة توصلت بدهائها على توالى العصور أن تجعل لها موقعاً من نفوس سلاطين المغرب فأثرت فيهم بما تريد وصرفتهم على أمرها فى تدبير ذاك الملك الضخم وفض شؤونه الداخلية والخارجية

يشهد أولئك الجامدون لسلاطين المغرب بامارة المؤمنين ، ويقر هؤلاء لأولئك بأنهم ورثة الانبياء والمرسلين ، وهكذا فالنفع متبادل والمصلحة مشتركة فهم على حد المثل السائر « أضىء لى أقدح لك »

جاء عهد على المملكة العثمانية فى التاريخ كادت تمنى بما منيت به مملكة المغرب الاقصى من دخول رجال الدين فى السياسة والعبث بضعف عقولهم فى شؤون الامة وعقد سلمها وحربها والهينمة على عمرانها والاشراف على خصوصياتها وعمومياتها ولكن بعض سلاطينها وزرائها أدركوا عاقبة تأثير رجال التكايا في عقول أهل السياسة والرأى ومذ ذاك العهد وأظنه كان على زمن السلطان سليمان القانونى دخلت الدولة فى طور الحكومات المدنية .

ولو ظلت العناية بساكنى التكايا والاخذ بآرائهم فى المملكة العثمانية لما كنا اليوم نلبس الطربوش ولا السراويل والسترات الافرنجيه بل ولا نطبع الكتب والمصاحف لان الفقهاء فى الاستانة حرموا كل ذلك عندما أراد السلاطين إدخاله فى بلادهم !

نعم لو ظل العمل بتلك الآراء الغريبة لما كانت الدولة العثمانية بجنديتها وتنظيم شؤون ادارتها بأرقى من حكومة الافغان الآن وما العهد ببعيد بتحريم أهل الجمود على أميرها فى العهد الاخير اجتماعه بحاكم الهند أيام رحلته مؤخراً اليها وتناول طعام الافرنج ولبس لباسهم ومعاشرتهم بالمعروف . ولو لم يكن للامير جيش يستميت فى الدفاع عنه اذا طرأ طارىء لكنا سمعنا بان ذاك الدهماء من الاغبياء تمكن من التغلب على أميرهم ووسدوا الحكم الى من ترضيهم سياسته وحالته وشايعهم على أفكارهم وهي لو صحت مرة لكذبت مرات وأفسدت على الناس أمرهم

من لنا بمن يلقى على مسامع مولاى عبد العزيز هذه النصيحة ليتخذ له بطانة من أهل الرأى الرجيح حتى ولو بجلبهم من مملكة أخرى للاستعانة بهم على تدبير مملكته . ليت من يقرأ له هذه الكلمات القليلة ولو ينقلها فى قطعة من الورق لان قراءة الجرائد محرمة عند السلطان بفتوى من علمائه فما الحال فيما نخوض فيه من الافكار

---

# حرية الامم (١)

البشر سائرون فى طريق النظام والحرية آخذون نحو الكمال ينشؤن فى حياتهم القومية ، على غير نشأة الجاهلية ، ويرون السعادة الابدية فى احترام الحقوق الشخصية والعمومية ، والقيام على أسباب الحياة المادية والمعنوية .

ما أتى على الناس دهر مثل هذا ، دخلت فيه مصالحهم تحت قوانين مقررة ، وأصول محررة ، وما عهدت للعلم سلطة عمت البحر والبر ، والفاجر والبر ، والابيض والاسود ، بل والنبات والجماد ، مثل هذا القرن الغريب فى شأنه ، الغريب فى سلطانه ، فكأن روح الارتقاء كالنسم تسرى فى الهواء والماء وتنزل احشاء الكبير ، كما تحل فى صدر الصغير ، ولكنها نسمات محيية لا مميتة ، وجرائيم نافعة لا ضارة

العلم نور يصعب بعد الآن أن يعم فريقاً دون آخر ، وينير بلداً أو يغفل آخر ، وبتأثيره لن يقوى الظالمون على أتيان ما كانوا يأتونه من هضم حق المستضعفين والمغلوبين

هذا النور يتقبله أفراد من علية كل أمة ممن رجحت أحلامهم وسلمت أبصارهم وبصائرهم فيوليهم ارتقاء يتقلب فى أدواره كالجنين ، حتى تضعه أمه ثم تربيه وتغذيه الى أن يكون منه رجل تام الادوات أو ناقصها بحسب محيطه وبيئته

ما ارتقت أمة بصعاليكها ارتقاءها بأعاظمها ، ما فنيت أمة فى واحد الاضعف

---

(١) نشرت فى جريدة المؤيد يوم ٥ رمضان ١٣٢٥

أمرها واستبيح حماها ، وما وكلت شأنها لاهل العقول الكبيرة الا قويت . وما سعادة الامة الا بقدر ما لديها من هذه العقول المثقفة التى تفكر وتمحض ، وتدبر وتدرب ، وعلى نسبة غنائهم ومضائهم ، يكون ارتقاء أمتهم .

كل أمة نام خيرة أبنائها عن الطلب بحقوقها يضيعها مرور الزمن . وكل شعب استسلم وسالم تفقد منه غريزة الشجاعة اللازمة فى عراك هذا العالم فيذل ويخزى . بل كل أمة لا يتولى أهل الرأى منها أمرها ، تضعف وتصير فى مؤخرة السفينة ، البشرية مقطورة بغيرها مستعبدة له .

فالامة التى لا تسعى الى تكثير سواد أرباب الرأى وتأخذ بأيديهم ، ليتم لهم ما هو أرقي ما تنصرف اليه اطماعهم من حياتهم ، من تحسين حال المحتفين بهم ، هى أمة ميتة شريرة ظالمة ، عاملة على دمارها

ولو جئت تستفتى التاريخ فى هذا الشأن لقرأت فيه مئات الامثلة مما فيه عبرة لمعتبر ، وزاجر لمزدجر ، وما لنا والا يغال فيه الى القديم ففي التاريخ الحديث أمثلة كثيرة . فقد نالت الولايات المتحدة ما نالت من الاستقلال بفضل فئة من رجالها تعلموا على الامة الانكليزية وهم خيرة أبنائها فبزوها وتخلصوا منها ، وكذلك كان من جمهوريات الجنوب فانها نزعت ربقتها من حكم اسبانيا والبرتغال لما ارتقت عقول أبنائها وتولى زعامتها عقلاؤها

ولو تقصيت تاريخ كل أمة صغيرة كانت أو كبيرة شرقية أو غربية نالت حظها من نور العلم والسعادة الحقيقية لا تجده نشأ الا بفضل أهل الرأى منها ممن تجردوا عن سفساف الامور ، وتنزهوا عن الاهواء النفسية

وتاريخ انكلترا والمانيا وايطاليا وفرنسا واليابان شاهد عدل أبد الدهر بأن العقل هو الذى دبر ما دبر ، وان ما نراه ونعجب به من آثار اجتماعهم ونظامهم ، هو من عمل السنين ونتيجة الانكماش والتوفر وحسن التدبير . ولقد نرى العقلاء يصرفون الامر بواسع حكمتهم ، ويدبرون أمور قومهم تدبير من طب لمن حب

الامم تقتبس بعضها عن بعض ، فان كانوا قادة حركتها عقلاء تأخذ عنهم النافع ، وان كانوا جهلاء يختلط عليها الامر ، وتتناول الغث والسمين بلا تمييز . فقد كان من نتائج الثورة الفرنسوية سنة ١٨٤٨ أن انعكست صورة منها على المانيا وكانت

العقول قد تخمرت ، والنفوس قد استعدت ، فحدث فيها انقلاب عام ، وقام العامة بتدريب الخاصة يطالبون الحكومة بالاصلاح ، فاستسلمت لمطالبهم لانها رأت الحركة عامة . ومن عادة الحكومات أن لا تحرك ساكناً اذا رأت السواد الاعظم عليها متألبين

قال صاحب كتاب المانيا الحديثة ونشوءها[1]: «فخاف الامراء وطأطؤا رؤسهم من عاقبة هذا الانتقاض ، وخف ملك ورتمبرغ وكبار دوقات بادوهيس ومجلس الشيوخ فى فرنكفورت فأصدروا أمراً باطلاق حرية الصحافة . وأصاب مجلس الامة فى فرنكفورت دوار عظيم ، فعزم على اعادة النظر فى صك الوحدة الوطنية وجمع شتات الامة الالمانية ، ودعا الحكومات الالمانية لارسال مندوبين عنها ليتفاوضوا فى هذا الشأن .

ونشأت اضطرابات فى مونيخ أدت الى تنازل الملك لويز الاول عن الملك وارتقاء ماكسيمليان الثانى الى العرش وتأليف وزارة حرة ، وتعدى الحال الى فينا فنشأت فيها ثورة قضت على طريقة مترنيخ فى الحكم ، ونهضت كل من المجر وايطاليا الى مثل هذا الغرض . ونشبت الفتنة فى برلين وأصبح الملك والعاصمة تحت أمر الثائرين ، واندكت معالم الحكم المطلق

وكان فى رأس تلك الاعمال جماعة من أهل الطبقة الوسطى المهذبة من الاساتذة والكتاب والمحامين والاطباء والتجار وأرباب المعامل كلهم يطالبون باتحاد كلمة الامارات الالمانية واحلال الحرية محل العبودية ، وتدور أهم مطالبهم على دعوة دار ندوة وطنية واطلاق حرية الصحافة وانشاء مجلس محكمين ، والاستعاضة عن جيوش دائمة بتسليح الامة

وكان بين تلك الصفوف من الحزب الحر فريق عظيم يرى الاعتدال خيراً من التطرف وأن يعمد الى مخاطبة الملوك والامراء فى تحقيق مطالب الاصلاح وفريق يرى الغاء سلطة الاشراف والملك وانشاء نظام جمهوري ووراء تينك الطبقتين سواد عظيم من السكان ، يطالبون ما عدا الاصلاحات السياسية باصلاحات اجتماعية ، تكون فيها السعادة العامة ، ويرادبها مساواة الجميع والغاء امتيازات كبار المزارعين

(١) H. Lichten berger : L'Allemagne moderne, son evolution

فى القرى واصلاح القانون الصناعى فى المدن ، وحماية أرباب الصنائع من منافسة المعامل ، وحماية رجل المعمل من مديره

كل هذه الحركة الثورية أدت الى اجتماع دار الندوة فى فرنكفورت وقد طلب الشعب تنظيمها واجتماعها بنفسه وبواسطة أهل الثقة والرأى منه ولم يسع الحكومة الا أن تدير هذه الحركة ولكنهم طلبوا اجتماع دار الندوة ورخصوا بالانتخاب ورضوا بأن يجتمع النواب الذين ينتخبون بالانتخاب العام ليجتمعوا ويتفاوضوا فى مصالح البلاد العامة ويساعدوا الامراء وصار القول الفصل للاحرار ومن ذلك نشأت الوحدة الالمانية التى بهرت آثارها

هذا ما جرى فى المانيا فى سبيل التحرير من رق العبودية ، وغريب فى أمر الالمان والانكليز فانهم نالوا حريتهم من ملوكهم بالتدريج ولم يريقوا فيها دما، على العكس فى الفرنسيس فانهم نالوا ما نالوا بعد أن بذلوا مهجاتهم ، فليت كل أمة قضى عليها بالاستعباد تنال حريتها على أيدى عقلائها بدون فتنة كما نالتها المانيا وانكلترا فلا خير فى الفتن مهما كانت النتائج ولا خير فى أمة لا يتولى عقلاؤها شؤونها

---

# صلاح الدين

## ومدونو سيرته

لو كان تاريخ العرب يدرس فى مدارسنا على أصوله لوجب أن تدرس سيرة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والجزيرة كما تدرس سيرة الخلفاء الراشدين فقد مضت القرون بعد الخليفة المأمون العباسى ولم ينشأ للعرب ملك كصلاح الدين بعقله وعدله وحلمه وحسن بلائه . وقد دونت سيرته فى عهده فكان عند المشارقة والمغاربة انموذج الملك الحازم العاقل وأحق ما يرجع اليه فى سيرته رحمه الله من الكتب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لبهاء الدين بن شداد من قضاة الملك الناصر وكتاب الفتح القسى فى

الفتح القدسى لعماد الدين الكاتب أحد كتاب ديوانه ثم يؤخذ ممن كان فى عصره أو قريباً منه أمثال ابن الاثير صاحب الكامل وأبى الفداصاحب حماة أو عن صاحب تاريخ الروضتين فى أخبار الدولتين لابى شامة وذيله له

أما كتاب النوادر فهو على أسلوب المؤرخ كتب بعبارة مرسلة لا تكلف فيها ،صيغ فيه اللفظ على قدر المعنى بخلاف الفتح القسى فانه راعى فيه السجع من أوله الى آخره حتى يكاد يمل قارئه وتشغله الالفاظ والجناسات والترصيع وعويص اللغة عن تدبر المعنى ودخوله الآذان بلا استئذان على انه من سجعه فى الاحيان ما يجىء عفو القريحة فيكون المعجب المطرب مثل فصل « ذكر حال نساء الفرنج » فانه أبدع فيه كل الابداع وان كان على ما يظهر ركب مركب الغلو فى تمثيل حالهن .

ولقد تدبرنا سيرة الملك الناصر صلاح الدين منذ ولد فى قلعة تكريت ( ٥٣٢ هـ ) وكان والده أيوب بن شاذى والياً بها الى أن جاء الموصل مع والده وقد ترعرع الى أن انتقل معه الى الشام وأعطى والده بعلبك الى أن اتصل بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكى الى أن ذهب صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر الى أن ملك مصر وأزال دولة العاضد الفاطمية وخطب للدولة العباسية الى أن فتح الشام واستخلص أكثر بلاد الساحل الشامى والقدس من الافرنج الى أن توفاه الله فى دمشق بعد جهاد أربع سنين فى الصليبيين — تدبرنا كل هذا فلم نحص له زلة ولا شهدنا له الا ما ينطبق على مكارم الاخلاق والعدل المتناهى والحلم الذى دونه حلم أحنف ومعاوية ولولا ما دسه الفقهاء عليه من تزيين قتل الشهاب السهروردى الفيلسوف لخرجت صحيفة حياته كلها بيضاء نقيه قال ابن شداد ان هذا السلطان كان « مبغضاً للفلاسفة والمعطلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر أعز الله أنصاره بقتل شاب نشأ يقال له السهروردى قيل عنه انه كان معانداً للشرائع معطلا وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فامر بقتله فطلبه اياما فقتله » هذه رواية ابن شداد وهو من الفقهاء أورد هذه القصة فى معرض ان السلطان يعظم شعائر الدين واثبات انه يقول بالبعث والنشور ومجازاة المحسن بالجنة والمسىء بالنار

الا ان ابن أبي أصيبعة قال فى حقيقة قتل الشهاب السهروردى انه لما أتى الى حلب وناظر بها الفقهاء ولم يجاره أحد كثر تشنيعهم عليه فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازى ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب واستحضر الاكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين ليسمع ما يجرى بينهم وبينه من المباحث والكلام فتكلم معهم بكلام كثير وبان له فضل عظيم وعلم باهر وحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيناً عنده مختصاً به فازداد تشنيع أولئك عليه وعملوا محاضر بكفره وسيروها الى دمشق الى الملك الناصر صلاح الدين وقالوا ان بقى هذا فانه يفسد اعتقاد الملك الظاهر وكذلك ان أطلق فانه يفسد أى ناحية كان بها من البلاد وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك فبعث صلاح الدين الى ولده الملك الظاهر بحلب كتاباً فى حقه بخط القاضى الفاضل وهو يقول فيه ان هذا الشهاب السهروردى لا بد من قتله ولا سبيل الى اطلاقه ولا يبقى بوجه من الوجوه ولما بلغ شهاب الدين السهروردى ذلك وأيقن انه يقتل وليس جهة الى الافراج عنه اختار أن يترك فى مكان مفرد ويمنع من الطعام والشراب الى أن يلقى الله تعالى ففعل به ذلك وكان فى أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة . قال صاحب طبقات الاطباء ان السهروردى صار له شأن عظيم عند الملك الظاهر وبحث مع الفقهاء فى المذاهب وعجزهم واستطال على أهل حلب وصار يكلمهم كلام من هو أعلى قدراً منهم فتعصبوا عليه وأفتوا فى دمه حتى قتل وقيل ان الملك الظاهر سير اليه من خنقه ثم ان الملك الظاهر بعد مدة نقم على الذين أفتوا فى دمه وقبض على جماعة منهم واعتقلهم وأهانهم وأخذ منهم أموالا عظيمة .

هذه الغلطة الوحيدة هى التى أحصيت لصلاح الدين وهى فى الحقيقة انتقام المتفقهة من المتفلسفة أو النقل من العقل — وهذا الانتقام ما برح على أشده فى كل زمان ولا سيما منذ القرن السادس الى آخر العاشر فانه قتل فى بلاد الاسلام كثير من الاعاظم أو اضطهدوا وأوذوا من قبل أعداء الفلسفة وما عدا ذلك فان صلاح الدين لا يلام على قتل أحد من الصليبيين لانهم افحشوا هم فى أسراه وعاهدوا فخانوا ومثل من قتلهم من المصريين للقضاء على الدولة العبيدية أو من

قاموا يدعون اليهم بعد أن زالت دولتهم وفي جملتهم عمارة اليمني الشاعر كل ذلك يغتفر له لانه فى سبيل تأييد سلطانه والملك عقيم كما قيل .

ومما ذكره ابن شداد فى عدله انه كان رؤوفاً رحيما ناصراً للضعيف على القوي وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان فى جميع زمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص فى كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات . وكان يجلس مع الكاتب ساعة اما فى الليل أو فى النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا متنقلا ولا طالب حاجة وما استغاث اليه أحد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته ولقد رأيته واستغاث اليه انسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقى الدين ابن أخيه فانفذ اليه ليحضر الى مجلس الحكم وكان تقى الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه فى الحق .

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع انسان تاجر يدعى عمر الخلاطى وذلك انى كنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف اذ دخل على شيخ مسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطى معه كتاب حكمى يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال : خصمى السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعت انك لا تحابى قلت : وفى أى قضية هو خصمك فقال : ان سنقر الخلاطي كان مملوكى ولم يزل على ملكى الى أن مات وكان فى يده أموال عظيمة كلها لى ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها فقلت له : يا شيخ وما أقعدك الى هذه الغاية فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمى ينطق بأنه لم يزل فى ملكى الى أن مات فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطى وانه قد اشتراه من فلان التاجر بارجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وانه لم يزل فى ملكه الى أن شذ عن يده فى سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط الى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل : لا ينبغى سماع هذا بلا وجود

الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده فرضى الرجل بذلك واندفع فلما اتفق المثول بين يديه فى بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيما وقال : كنت نظرت فى الكتاب فقلت نظرت فيه ورأيته متصل الورود والقبول الى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمى من دمشق وشهد به على يد قاضى دمشق شهود معروفون فقال : مبارك نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل فى القضية ما يقتضيه الشرع

ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معى خلوة فقلت له : هذا الخصم يتردد ولا بد أن نسمع دعواه فقال : أقم عنى وكيلا يسمع الدعوى ثم يقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب الى حين حضور الرجل ها هنا ففعلت ذلك ثم احضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت الى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال : ان كان لك دعوى فاذكرها فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولا فاجابه السلطان ان سنقر هذا كان مملوكى ولم يزل على ملكى حتى اعتقته وتوفى وخلف ما خلفه لورثته فقال الرجل : لى بينة تشهد بما ادعيته ثم سأل فتح كتابه ففتحه فوجدته كما شرحه فلما سمع السلطان التاريخ قال عندى من يشهد ان سنقر هذا فى هذا التاريخ كان فى ملكى وفى يدى بمصر وانى اشتريته مع ثمانية أنفس فى تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وانه لم يزل فى يدى وملكى الى أن اعتقته ثم استحضر جماعة من أعيان الامراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها التاريخ كما ادعاه فابلس الرجل فقلت له : يا مولاى هذا الرجل ما فعل ذلك الا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدى المولى ولا يحسن أن يرجع خائباً للقصد فقال: هذا باب آخر وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عنى مقدارها قال ابن شداد فانظر الى ما فى طى هذه القضية من المعانى الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد الى الحق وارغام النفس والكرم فى موضع المؤاخذة مع القدرة التامة اهـ .

مثل هذا الفاتح العظيم مات ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة فان صدقة النفل استرقت جميع ما ملكه من الاموال فملك ما ملك ولم يخلف فى خزانته من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكا ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الاملاك

وكان رحمه الله يهب الاقاليم وفتح آمد ( ديار بكر ) وطلبها منه ابن قره ارسلان فاعطاه اياها وهو يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بانه متى علم به أخرجه قال ابن شداد : وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول : اعطينا لفلان . وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً وما سمعته قط يقول : قد زدت مراراً فكم أزيد واكثر الرسائل كانت تكون فى ذلك على لسانى ويدى وكنت أخجل من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما اطلبه لهم لعلمى بعدم مؤاخذته فى ذلك وما خدمه أحد الا وأغناه عن سؤال غيره وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لى : قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس ولم يكد يركب فرساً الا وقد وعد بأن يعطيها لاحد طلاب عطاياه . وبالجملة فان ما ذكره العماد وابن الشداد عن خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية وعدله وكرمه وشجاعته واهتمامه بأمر الجهاد وصبره واحتسابه وحلمه وعفوه ومحافظته على أسباب المروءة هو العجب العجاب وقرة عين المسلمين والعرب على مر السنين والاحقاب .

يرى الناظر فى كتاب العماد الكاتب الاصفهانى انه لم يكد يغفل تفاصيل الوقائع الصلاحية أو يشذ عنه نادرة من النوادر اليوسفية الايوبية على ضيق عطن النثر والسجع عن قبول هذه المعانى بجملتها ويعاب على الاصفهانى كثرة تبجحه بكتابته فقد ذكر غير ما مرة من كتابه انه كان هو الفرد المقدم فى الديوان الصلاحى مع ان ابن شداد ذكر عن نفسه شيئاً من ذلك بالعرض أورده كما رأيته فى معرض الكلام عن مناقب صلاح الدين ولكن صاحبنا العماد جرى على عادة الفرس فى المبالغة سامحه الله

فقال فى فتح بيروت : « وكنت يومئذ فى مرض قد أزعجنى وأعجزنى ومضض أجفانى وعيون العواد أبرزنى وانقطعت عن الحضور عند السلطان وضعفت عن تحرير كتاب الامان فطلب السلطان كل كاتب فى ديوانه وكل من يمسك قلما من أفاضل الملك وأعيانه فلم يرضه ما كتبوه ولم يكفه ما رتبوه فجاءنى فى تلك الحالة

من استملاه منى ومرضت أذهان الاصحاء ولم يمرض ذهنى فتسلم بيروت بخطى وأصبحوا وأنا الآخذ والمعطى وكان الناس قد أنسوا بما أسطره وأزبره وأنسوا سوى ما أذكره وأحبره والفوا الصحة فيه فالقوه ولقوا السقم فى غيره فانفوه فلم يكن فى ذلك التوقيع تعويق بل كله بتوفيق من الله توثيق فما فتح فتح الا بمفتاحه ولا رتق فتق الا باصلاحه ولا جلى ظلام الا باصباحه ولا ورى زند الا باقتداحه . اه »

وقال من فصل : وكان قد عرض له مرض فانقلب الى دمشق يداوى مزاجه فلما عاد الى الحضرة سأله السلطان : « أين كنت ولم أبطأت وحيث أصبت فى المجىء فما أخطأت وقد كنا فى انتظارك والسؤال عن أخبارك وهذا أوان احسانك فأين احسان أوانك فأجر بنانك بجرأة بيانك واجز فى ميدانك وما للبشائر ( بفتح القدس ) الا واصفها وللفرائد الا راصفها وللفصاحة الا قسها وللحصافة الا قيسها وكان قد جمع أمس كتاب دواوينه على انشاء كتب ما ارتضاها واقتضاب معان ما اقتضاها وكانوا سألوه فى كتاب الديوان العزيز فقال : لهذا من هو أقوم به وعنانى فلما ساءنى نادانى واستدنانى فصرفت الى امتثال أمره عنانى وسلم الى الكتب التى كتبوها بالالفاظ التى رتبوها وقال غيرها ولا تسيرها وغرضه انى اعدل معوجها وابدل مشبجها وافترع المعنى البكر للفتح البكر وأوشح ذكر آياته بآيات الذكر فاستجدتها فما استجدتها واستملحتها فما استملحها وشممتها وبها سهلك وكشفتها وسترها هتك وكانوا قد تعاونوا عليها وفيها لهم شرك فشرعت فى افتضاض الابكار واقتضاء الافكار واقتراح القريحة واقتراء رحاب الكلام الفصيحة الفسيحة وافتتحت فى بشرى الفتح بكتاب الديوان العزيز وأوردت المعنى البليغ فى اللفظ الوجيز ووشحت ووشعت وشعبت وأشبعت وأطلت وأطبت وصبت وأصبت وأعجزت وأعجبت وأطريت وأطربت وأبعدت وأبدعت ورصعت وصرعت وطابقت وجانست ووافقت وأنست . . . اه »

وقال فى الوقعة العادلية : « ولما عرفت بالواقعة والنصرة الجامعة صدرت ثلثين أربعين كتاباً بالبشارات بأبلغ المعانى وأبرع العبارات وقلت اذا نزل السلطان وجد الكتب حاضرة والبشائر شائرة وركبت أنا والقاضى بهاء الدين بن شداد

لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد فما أعجل ما سلبوا وعروا وفروا وقروا وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم ورأينا امرأة مقتولة لكونها قاتلة وسمعناها وهى خامدة بالعبرة قائلة وما زلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام فعدنا الى الخيام وأخذت الكتب التى نمقتها بالبشائر التى حققتها وجئت واذا السلطان قد استبطانى وعدم اجابتى لما دعانى فما صبر ولا انتظر ولا ترقبنى أن احضر ولا امهل ان اعطى البشارة حقها واجلو بأنوار المعانى افقها وابلغ بالبلاغة مداها واصبغ بتقليص الضلالة ثوب هداها واصف بحدود الاقلام ما صنعته حدود السيوف وأروج نقودى عند السلطان واغنيه عن الزيوف فابصرت عنده مشرفى المطابخ والابيات ومدونى الجرائد بالاثبات وقد كتبوا تلك البشارة الثقيلة الجليلة فى رقاع خفيفة بعبارات سخيفة وقد عطلت الحسناء من حليتها وعروها من بزتها وشوهوا جمالها وأحالوا حالها فذهب بها المبشرون وسار القاصدون فما كان لتلك الوقعة عند من وقعت عليها وقع ولا تم لفليل من رام الاطلاع على حقيقتها نقع وأرادوا بدمشق قراءتها على المنبر فما استحسنوها ولو وردتهم بزينة عبارتى وبراعتى زينوها وفى تلك الحال التفت السلطان الى وقال اكتب بهذه البشارة الى بغداذ وعجل بها الانفاذ فقلت فى سبيل العتب أنتم تريدون ما اكتبه ولا ترغبون فيما ارتبه وأهذبه فقال كأنك كتبت البشائر فهاتها حتى تهدى الى طرقاتها فقلت ما فات فات وهيهات هيهات وأخرجت له مابقى من بشارات البلاد التى أنشأتها بالالفاظ والمعانى التى ابتدعتها وابتدأتها فسارت فسرت البعيد والقريب وخصت من جداها بالخصب الجديب وصدحت باسجاعها المنابر وصمت بسماعها المفاخر وظهرت بعباراتها العبر وبهرت بزبرها الزبر وعمرت بمعانيها المغانى وعمت مباهجها مناهج الاقاصى والأدانى . اهـ »

وقال من هذا البحر والقافية « فى ذكر لطف من الله فى حقى خفى كان السلطان قبل استيلاء الفرنج على عكا بسنة قد عمل ترجمة تفرد بها القاضى بن قريش لمكاتبة الاصحاب ليكتب بها اليهم ويعود بها الجواب فلم يبق المكاتبة ابتداء وجواباً بخطى وخرج حكم عكا فى الكتابة عن شرطى فقلت لأصحابى ما صرف

الله قلمى عن عكاء إلا وفى علمه أن الكفر اليها يعود وأن النحوس تحلها وترحل عنها السعود واستعاذنى الله من استعاذتها وردها الى شقاوتها بعد سعادتها ولقد عصم الله قلمى وكلمى وعرف شيم مخايل الطاقة من شيمى وهذا قلم جمعت به أشتات العلوم مدة عمرى وما أجراه الله إلا بأجرى فالحمد لله الذى صانه وعظم شانه وما ضيع احسانه وهو للفقير والفتيا وصالح الدين فى الدنيا وما عرف الا بعرف فما صرف إلا عن صرف وما صفارته الا فى نجح وما أسفاره الا عن صبح وما تجارته الا لربح فهو يمين الدولة وأمينها ومعين الملة بل معينها بمداده يستمد امدادها وبسداده للثغور سدادها ودواته دواء الممضلات وبعقده حل المشكلات وبخطه حط عوادى الخطوب وبقطه قط هوادى القطوب وبريه برىء الامراض وبدره درالاعراض وبدره انتظام عقود العقول وبداريه ابتسام الاقبال والقبول وبجريه جرى الجياد للجهاد وبسعيه سعى الاجواد للأنجاد وبحركته سكون الدهماء وببركته ركون الرجاء فما كان الله ليضيعه فى صون ما لا يصونه وعون مالا يعينه فخفت على عكاء من وقوف قلمى عنها وكان قد ألهمنى الله فانه صانه ولم يصنها وشكرت الله على هذه اللطيفة والعارفة الطريفة اهـ . »

وقال من فصل فى وفاة السلطان وكيف كانت حاله بعده : « وبقيت تلك الايام لا أفرق بين الدجى والضحى ولا أجد قلبى من سقم الهم وسكره صح ولا صحا وحالت حالى وزال إدلالى وزاد بلبالى وبطل حقى واتسع خرقى وتنازل جاهى وتنازق أشباهى وأعضلت أدواء الدواهى وبقيت المعارف متنكرة والمطالع مكفرة والعيون شاخصة والظلال قالصة والأيدى يابسة والوجوه عابسة وعادت أبكار خواطرى عانسة ونجوم قرائحى وشواردها الآنسة خانسة كانسة وبقى باب كل مرتجى مرتجاً ومنهج كل معروف منهجاً وظعن الغنى عنى واختلف فى حسن الأخلاف بى ظنى حتى تولى الملك الافضل بدمشق مقام أبيه وقام بالأمر بعزم تأنيه وحزم تأتيه وعز تأبيه فعرف افتقاره الى معرفتى وفقرى والى عطل الملك ومحله من غزارة حلب درى ونضارة حلى درى فكتبت له وحليت من الملك عطله ووشيت الكتب ووشعتها وجليت الرتب ووسعتها وهززت اليراعة وأغرزت البراعة وهجرت الجماعة ولزمت القناعة . اهـ »

هذا هو الاعجاب بالنفس بل اعجاب الفرس تراه ماثلا من أول كتابه الى

آخره فقد قال فى مقدمته : « وأودعته من فوائد الكلام والفرائد الفذ والتؤام در السحاب ودر السخاب وسميته الفتح القدسى تنبيهاً على جلالة قدره وتنويهاً بدلالة فخره وعرضته على القاضي الأجل الفاضل وهو الذى فى سوق فضله تعرض بضائع الفضائل فقال لى سمه ( الفتح القسى فى الفتح القدسى ) فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته وصاغت صيغة بيانك فيه ما يعجز ذوو القدرة فى البيان عن صياغته اه . »

وأظن أن القاضى الفاضل على جلالة شأنه ما كان يستحق هذا الاعظام من العماد لو لم يكن نوه له بكتابه على أن للعماد من المزايا التى يفاخر بها ما قد يغفر له هذا التبجح ولكن كثيرين يفاخرون وليس عندهم شيء من المزايا . نشأ العماد بأصبهان وقدم بغداد فى حداثته وتفقه بالمدرسة النظامية وأقام بها مدة ( ابن خلكان ) ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد فولاه النظر بالبصرة ثم بواسط فلما توفى أقام العماد مدة فى عيش منكد وجفن مسهد ثم انتقل الى دمشق ( ٥٦٢ هـ وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين وعرفه والد صلاح الدين فأحسن اليه وأكرمه وميزه من الاعيان والاماثل وعرفه صلاح الدين ومدحه بقصيدة ثم أن القاضى كمال الدين الشهرزورى نوه بذكره عند السلطان نور الدين وعدد عليه فضائله وأهله لكتابة الانشاء قال العماد فبقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ولا تقدمت لى به دراية ولقد كانت مواد هذه الصناعة عتيدة عنده لكنه لم يكن قد مارسها فجبن عنها فى الابتداء فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية أيضاً وحصل بينه وبين صلاح الدين فى تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام ولما أخذ صلاح الدين دمشق حضر بين يديه وأنشده قصيدة أطال نفسه فيها ثم لزم الباب ينزل لنزول السلطان ويرحل لرحيله فاستمر على عطلته مديدة وهو يغشى مجالس السلطان وينشده فى كل وقت مدائح ويعرض بصحبته القديمة ولم يزل على ذلك حتى نظمه فى سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه فصار من جملة الصدور المعدودين والاماثل المشهورين يضاهى الوزراء ويجرى فى مضمارهم وكان القاضى الفاضل فى أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان

ويتوفر من مصالح الديار المصرية والعماد ملازم للباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم وصنف التصانيف الفائقة من ذلك كتاب خريدة القصر وجريدة العصر جعله ذيلا على زينة دمية الدهر تأليف أبى المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى والخطيرى جعل كتابه ذيلا على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي والباخرزى جعل كتابه ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى والثعالبى جعل كتابه ذيلا على كتاب البارع لهرون بن على المنجم

وقد ذكر العماد فى خريدته الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة الى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك أحداً الا النادر الخامل وأحسن فى هذا الكتاب وهو فى عشر مجلدات وصنف كتاب البرق الشامى فى سبع مجلدات وهو مجموع تاريخ وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق الى الشام وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود وكيفية تنقله بخدمة السلطان صلاح الدين وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام وهو من الكتب الممتعة وأنما سماه البرق الشامى لانه شبه أوقاته فى تلك الايام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها وصنف كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى فى مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس وصنف كتاب السيل على الزيل جعله ذيلا على الذيل لابن السمعانى وهو ذيل على كتاب خريدة القصر وصنف كتاب نصرة الفترة وعصرة القطرة فى أخبار الدولة السلجوقية ( مطبوع ) وله ديوان رسائل وديوان شعر فى أربع مجلدات ونفسه فى قصائده طويل وله ديوان صغير جميعه دوبيت وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف .

ولم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته الى أن توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى فاختلت أحواله وتعطلت أوصاله ولم يجد فى وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته واقبل على الاشتغال بالتصانيف وكانت ولادته يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وخمسمائة باصبهان وتوفى يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر .

أما ابن شداد مؤلف السيرة الصلاحية فقد ولد بالموصل سنة ٥٣٩ وحفظ بها القرآن الكريم فى صغره وتخرج بضياء الدين القرطبى وبابن الشيرجى والطوسى الخطيب وغيرهم قرأ عليهم القراآت والتفسير والحديث والفقه والخلاف والادب واللغة وأعاد بالمدرسة النظامية وحج فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وزار بيت المقدس والخليل ثم دخل دمشق والسلطان صلاح الدين محاصر قلعة كوكب فذكر انه سمع بوصوله فاستدعاه اليه فظن انه يسأله عن كيفية قتل الامير شمس الدين وكان أمير الحاج فى تلك السنة من جهة صلاح الدين وقتل على جبل عرفات فلما دخل عليه ذكر انه قابله بالاكرام التام وما زاد على السؤال عن الطريق ومن كان فيه من مشايخ العلم والعمل وسأله عن جزء من الحديث ليسمعه عليه فاخرج له جزءاً جمع فيه اذكار البخارى وانه قرأه عليه بنفسه فلما خرج من عنده تبعه عماد الدين الكاتب الاصبهانى وقال له : السلطان يقول لك اذا عدت من الزيارة وعزمت على العود فعرفنا بذلك فلنا اليك مهم فأجابه بالسمع والطاعة فلما عاد عرفه بوصوله فاستدعاه وجمع له فى تلك المدة كتاباً يشتمل على فضائل الجهاد وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين يحتوى على مقدار ثلاثين كراسة فخرج اليه واجتمع به ببقعة حصن الاكراد وقدم له الكتاب الذى جمعه وقال انه كان عزم على الانقطاع فى مشهد بظاهر الموصل اذا وصل اليها ثم انه اتصل بخدمة صلاح الدين فى مستهل جمادى الاولى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ولما توفى صلاح الدين كان حاضراً وتوجه الى حلب لجمع كلمة الاخوة أولاد صلاح الدين وتحليف بعضهم لبعض وكتب الملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين صاحب حلب الى أخيه الملك الافضل نور الدين على بن صلاح الدين صاحب دمشق يطلبه منه فاجابه الى ذلك فأرسله الملك الظاهر الى مصر لاستخلاف أخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين وعرض عليه الظاهر الحكم بحلب فلم يوافق على ذلك ثم ولى قضاءها ووقوفها وكانت حلب فى ذلك الزمان قليلة المدارس وليس بها من العلماء الا نفر يسير فاعتنى ابن شداد بترتيب أمورها وجمع الفقهاء بها وعمرت فى أيامه المدارس الكثيرة وكان الملك الظاهر قد قرر

له اقطاعاً جيداً يحصل منه جملة مستكثرة ولم يكن له خرج كثير فانه لم يولد له ولا كان له أقارب فتوفر له شيء كثير فعمر مدرسة للشافعية وداراً للحديث في حلب ولما صارت حلب على هذه الصورة قصدها الفقهاء من البلاد وحصل بها الاشتغال والاستفادة وكثر الجمع بها .

وكان بيد القاضي أبي المحاسن بن شداد حل الامور وعقدها ولم يكن لاحد معه في الدولة كلام وكان سلطانها الملك العزيز أبو المظفر بن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين وهو صغير السن تحت حجر الطواشي شهاب الدين أبي سعيد طغرل وهو أتابكه وتولي أمور الدولة باشارة القاضي أبي المحاسن لا يخرج عنهما شيء من الامور وكان للفقهاء في أيامه حرمة تامة ورعاية كبيرة خصوصاً جماعة مدرسته فانهم كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه .

قال صاحب وفيات الاعيان بعد ايراد ماتقدم تحصيله وكان القاضي أبو المحاسن المذكور سلك طريق البغاددة في ترتيبهم واوضاعهم حتى انه كان يلبس ملبوسهم والرؤساء يترددون اليه وكانوا ينزلون عن دوابهم على قدر أقدارهم لكل واحد منهم مكان معين لا يتعداه ثم انه تجهز الى الديار المصرية لأحضار ابنة الملك الكامل بن الملك العادل للملك العزيز صاحب حلب وكان قد عقد له عليها فسار في أول سنة تسع وعشرين وستمائة وعاد وقد جاء بها ولما وصل كان قد استقل الملك العزيز بنفسه ورفعوا عنه الحجر ونزل الاتابك طغرل من القلعة الى داره تحت القلعة واستولى على الملك العزيز جماعة من الشباب الذين كانوا يعاشرونه ويجالسونه فاشتغل بهم ولم ير القاضي أبو المحاسن وجهاً يرتضيه فلازم داره الى حين وفاته وهو باق على الحكم واقطاعه جار عليه غاية مافي الباب انه لم يبق له حديث في الدولة وكانوا يراجعونه في الامر فكان يفتح بابه لاسماع الحديث كل يوم بين الصلاتين واستمر على ذلك حتى توفي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة بحلب وصنف كتابه ملجأ الحكام عند التباس الاحكام يتعلق بالاقضية في مجلدين وكتاب دلائل الاحكام تكلم فيه على الاحاديث المستنبط منها الاحكام في مجلدين وكتاب

الموجز الباهر فى الفقه وكتاب سيرة صلاح الدين وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية .

هذان هما الرجلان اللذان تعلقا بخدمة صلاح الدين وحرص عليهما مع إدلالهما عليه فنفقت بضاعتهما فى سوقه والدولة سوق يحمل اليها ما يروج فيها . ومع ما كانا فيه من السعة لم تلههما الدنيا عن التأليف والتدريس وإحياء معالم العلم والادب فأثرا بفضلهما فى حياتهما . وبعد موتهما كتب العماد السيرة الصلاحية ممزوجة بالادب ومع هذا لم يفته الغرض من التاريخ حتى انه قال فيما تم على الاسطول من فصل « فانشقت مرائر الفرنج وأزاحت سفنها عن النهج وقرنصت بزاة البيزانية وتقلصت جباه الجنوية وكرثت أدواء الداوية وكثرت أسواء الاسبتارية وزادت آلام الالمانية وعادت أسقام الافرنسيسية »

مما دل على انه كان يعلم أجناس المحاربين ومما ذكره أيضاً فى ذكر ما تجدد لملك الانكتير ( انكلترا ) من المراسلة والرغبة فى المواصلة قال : وصلت رسل ملك الانكتير الى العادل بالمصافحة على المصافاة والمواتاة فى الموافاة وموالاة الاستمرار على الموالاة والاخذ بالمهادات والترك للمعادات والمظاهرة بالمصاهرة وترددت الرسل أياماً وقصدت التئاماً وكادت تحدث انتظاماً واستقر تزوج الملك العادل بأخت ملك الانكتير وأن يعول عليهما من الجانبين فى التدبير على أن يحكم العادل فى البلاد ويجرى فيها الامر على السداد وتكون المرأة فى القدس مقيمة مع زوجها وشمسها من قبوله فى أوجها ويرضى العادل مقدمى الفرنج والداوية والاستبار ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون التى فى الذرا ولا يقيم معها فى القدس الا قسيسون ورهبان ولهم منا أمان واحسان واستدعانى العادل والقاضى بهاء الدين بن شداد وجماعة من الامراء من أهل الرأى والسداد وهم علم الدين سليمان بن جندر وسابق الدين عثمان وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة وقال لنا تمضون الى السلطان وتخبرونه عن هذا الشأن وتسألونه أن يحكمنى فى هذه البلاد فلما جئنا الى السلطان عرف الصواب وما أخر الجواب وشهدنا عليه بالرضا وعاد الرسول الى ملك الانكتير بفصل أمر الوصلة وأراحة الجملة وأزاحة العلة واعتقدنا أن هذا أمر قد تم الى أن قال وبلغ الخبر الى مقدميهم ورؤسهم

فقصوه على قسوسهم وعسروا على عروسهم فجبهوها بالعذل واللذع ثم رضيت على شرط الموافقة فى الدين فأنف العادل الى آخر ما ذكر .

بيد ان الصراحة فى كلام ابن شداد أكثر لانه لم يتقيد بالسجع والترصيع وأنواع البديع المريع فقال فى ذكر ملك الانكتار : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوى الهمة له وقعات عظيمة وله جسارة على الحرب وهو دون الفرنسيس عندهم فى الملك والمنزلة لكنه أكثر مالا منه وأشهر فى الحرب والشجاعة وكان من خبره انه وصل الى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها الا وان تكون له وفى حكمه فنازلها وقاتلها فخرج اليه صاحبها وجمع له خلقاً كثيراً وقاتلهم قتالا شديداً ..... ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر قدم ملك الانكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها وكان لقدومه روعة عظيمة ووصل فى خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد واظهر الافرنج سروراً عظيما حتى انهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم ولقد كانت النيران مهولة عظيمة تدل على عدة عظيمة كبيرة وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم انهم موقنون فيما يريدون أن يفعلوا من مضايقة البلد (عكا) حتى قدومه فانه ذو رأى فى الحرب مجرب وأثر قدومه فى قلوب المسلمين خشية ورهبة ....

وقال من فصل : كنت ذكرت وصول رسول منهم يلتمسون من جانب الانكتار أن يجتمع بالسلطان وذكرت عذر السلطان عن ذلك وانقطع الرسول وعاد معاوداً فى المعنى وكان حديثه مع الملك العادل ثم هو يلقيه الى السلطان واستقر انه رأى أن يأذن له فى الخروج ويكون الاجتماع فى المرج والعساكر محيطة بهما ومعهما ترجمان فلما أذن فى ذلك تأخر الرسول أياما عنده بسبب مرضه واستفاض ان ملوكهم اجتمعوا عليه وانكروا عليه ذلك وقالوا هذه مخاطرة بدين النصرانية ثم بعد ذلك وصل رسول يقول لا تظن تأخرى بسبب ما قيل فان زمام قيادى مفوض الى وأنا أحكم ولا يحكم على غير انى فى هذه الايام اعترى مزاجى التياث منعنى عن الحركة فهذا كان العذر فى التأخير لا غير وعادة الملوك اذا تقاربت منازلهم أن يتهادوا وعندى ما يصلح للسلطان وأنا استخرج الاذن فى

ايصاله اليه فقال له الملك العادل قد أذن فى ذلك بشرط قبول المجازاة على الهدية فرضى الرسول بذلك وقال الهدية شىء من الجوارح قد جلب من وراء البحر وقد ضعف فيحسن أن يحمل الينا طير ودجاجة حتى نطعمها لتقوى ونحملها فداعبه الملك العادل وكان فقيهاً فيما يحدثهم به فقال الملك قد احتاج الى فراريج ودجاج ويريد أن يأخذها منا بهذه الحجة ثم انفصل حديث الرسالة فى الآخر على أن قال الرسول ما الذى أردتم منا ان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع فقيل له عن ذلك نحن ما طلبناكم أنتم طلبتمونا فان كان لكم حديث فتحدثوا به حتى نسمع وانقطع حديث الرسالة الى سادس جمادى الاخرى فخرج رسول الانكتار الى السلطان ومعه انسان مصرى قد أسروه من مدة طويلة وهو مسلم قد أهداه الى السلطان فقبله وأحسن اليه وأعاده مشرفاً مكرماً الى صاحبه وكان غرضه بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عنده من ذلك أيضاً .

وقال فى مشورة ضربها فى التخيير بين الصلحين بين الانكتار والمركيس : واصل التعاقد ان الملك ( الانكتار ) قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج وان تكون البلاد الساحلية الاسلامية والافرنجية لها فاما الافرنجية فلها من جانب أخيها والاسلامية له من جانب السلطان وكان آخر الرسائل من الملك فى المعنى ان قال ان معاشر دين النصرانية قد أنكروا على وضع أختى تحت مسلم بدون مشاورة البابا وهو كبير دين النصرانيه ومقدمه وها أنا أسير اليه رسولا يعود فى ستة أشهر فان أذن فبها ونعمت والا زوجتك ابنة أخى وما احتاج الى اذنه فى ذلك هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عليهم ضربة لازم .

وقال فى عود الرسول من قبل ملك الانكتار : وادى الرسالة وهى ان الملك يسأل ويخضع لك أن تترك له هذه الاماكن الثلاثة عامرة وأى قدر لها فى ملكك وعظمتك وما من سبب لاصراره عليها الا ان الافرنج لم يسمحوا بها وقد ترك القدس بالكلية فلا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس الا فى القمامة وحدها فانت تترك له هذه البلاد ويكون الصلح عاماً فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الدارون الى انطاكية ولكم ما فى أيديكم وينتظم الحال ويروج وان لم

ينتظم الصلح فالافرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكن مخالفتهم فانظر الى هذه الصناعة فى استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أخرى وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره والله الولى فى أن بقى المسلمين شره فما بلونا أعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

---

# سيرة صلاح الدين

أشار الينا أحد الاصدقاء أن نزيد القراء من سيرة أبي المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أحد أفراد الملة الاسلامية وأكبر أبطال القرون الغابرة من كان يعلم أعداءه كيف تكون الرجولية كما كان قال امبراطور الالمان الحالى وان نتوسع فى وقائعه ما أمكن لان سيرته الشريفة جديرة بأن يتدارسها الملوك والسوقة ويهتدى بهديها ابن القرن الحاضر والقرون الآتية فهى مثال الحكمة كلما كررت حلت ومهما أطال الناظر بصره فيها زاد بصيرة وماذا عسانا نقول فيمن جمع الفضائل النفسية ورزق من الصبر والثبات وحب الموت حباً في إحياء الامة وخادنه من أسباب التوفيق ما لم يكتب لاحد نخدم الاسلام والمسلمين بعقله وجهاده خدمة الخليفة الثاني ونفعهم بسيرته كما نفع المأمون العباسى وكان فى زهده وشدته على قدم على بن أبي طالب وعمر بن عبد العزيز

اجتمعت لصلاح الدين أرقى صفات تلازم الملوك والسلاطين واسمى أخلاق الزاهدين العالمين والكرماء المحسنين وتربى تربية رشيدة لا يكاد ينشأ عليها ابن أرقى البيوت المالكة لعهدنا فى بلاد الغرب مع ما لهم من المدارس الجامعة والمجامع والجمعيات وأسباب تهذيب النفس وتربية الملكات وانارة العقول

فلاحت على وجهه مخايل السعادة وأخذت النجابة منذ نشأته تقدمه من حالة الى حالة كما قالوا فنشأ فى كنف أبيه فى قلعة تكريت وكان أبوه وعمه بها عمالا لحاكم تلك الديار وكان أهله من دوين بلدة فى آخر عمل اذربيجان من جهة ايران

وبلاد الكرج وهم أكراد روادية وهى قبيلة كبيرة من قبائل الاكراد وانتقلوا من هناك الى تكريت وفيها ولد صلاح الدين

قال ابن خلكان اخبرنى بعض أهل بيتهم وقد سألته هل تعرف متى خرجوا من تكريت فقال : سمعت جماعة من أهلنا يقولون انهم خرجوا منها فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه فقال بعضهم : لعل فيه الخيرة وما تعلمون فكان كما قال

قلنا تشاءموا بولادة صلاح الدين وذلك لانه صادف انه اخرج والده من قلعة تكريت بامر صاحبها بهروز ليلة ولادته . وذكر فى الروضتين ان قد اجتمع مرة السلطان صلاح الدين ووالده الامير نجم الدين فى دار الوزارة بمصر وقد قعدا على طراحة واحدة والمجلس غاص بارباب الدولتين يوم أراد نور الدين محمود ابن زنكى أن تقطع خطبة المصريين وتقام دعوة بنى العباس وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول فبينا الناس كذلك اذ تقدم كاتب نصرانى كان فى خدمة الامير نجم الدين فقبل الارض بين يدى السلطان الملك الناصر صلاح الدين ووالده نجم الدين والتفت الى نجم الدين وقال له : يا مولاى هذا تأويل مقالتى لك بالامس حين ولد هذا السلطان فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ثم أخذ فى حمد الله وشكره والثناء عليه والتفت الى الجماعة الذين حوله والقضاة والامراء وقال : لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة وذلك انى ليلة رزقت هذا الولد يعنى السلطان الملك الناصر أمرنى صاحب قلعة تكريت بالرحلة عنها بسبب الفعلة التى كانت من أخى شيركوه رحمه الله وقتله النصرانى وكنت قد الفت القلعة وصارت لى كالوطن فثقل على الخروج منها والتحول عنها الى غيرها واغتممت لذلك وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادته فتشاءمت به وتطيرت لما جرى على ولم افرح به ولم استبشر وخرجنا من القلعة وأنا على طيرتى به لا اكاد اذكره ولا اسميه وكان هذا النصرانى معى كاتباً فلما رأى ما نزل بى من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى منى أن آذن له فى الكلام فأذنت له فقال لى : يا مولاي قد رأيت ما قد حدث عندك من الطيرة بهذا الصبى وأى شىء له من الذنب وبما استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يغنى شيئاً وهذا الذى جرى عليك قضاء من

الله سبحانه وقدر ثم ما يدريك ان هذا الطفل يكون ملكا عظيم الصيت جليل المقدار فعطفني كلامه عليه وها قد اوقفني على ما كان قاله فتعجب الجماعة من هذا الاتفاق وحمد السلطان ووالده الله سبحانه وشكراه .

ولما ملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق لازم نجم الدين أيوب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين . ونور الدين هذا تركى الاصل وهو صاحب الفضل الاول فى تأسيس ملك الشام ومصر بحيث قوى على رد غارات الصليبيين ودفعهم عن الارض المقدسة . فصلاح الدين يوسف ليس اذاً من أصل وضيع بل من أصل رفيع جداً تعلم القدر الذى كان يتعلمه أبناء الكبراء ونشأ نشأة دينية راقية وأخذ حسن الخلق والعدل والشجاعة والكرم عن أبيه نجم الدين أيوب ابن شاذى وكان عدلا مرضياً كثير الصلاة والصلات غزير الصدقات والخيرات يحب العلماء ربى فى الموصل ونشأ شجاعاً باسلا وخدم السلطان محمد بن ملكشاه فرأى منه أمانة وعقلا وسداداً وشهامة فولاه قلعة تكريت فقام فى ولايتها أحسن قيام وضبطها اكرم ضبط وأجلى من أرضها المفسدين وقطاع الطريق وأهل العيث حتى عمرت أرضها وحسن حال أهلها وأمنت سبلها ثم أضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيما فى أنفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة وكان لا يمر أحد من أهل العلم والدين به الا حمل اليه المال والضيافة الجليلة وكان لا يسمع عن أحد من أهل الدين فى مدينة الا انفذ اليه ما يستعين به على صلاح حاله

وكان أسد الدين شيركوه أخو نجم الدين أيوب فى قلعة تكريت مع أخيه وكان شجاعاً باسلا مثل أخيه فاتفق ان أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد اليها وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص وكان رجلا نصرانياً فاتفق فى ذلك اليوم ان النصرانى صادف أسد الدين صاعداً الى القلعة فعبث به بكلمة ممضة فجرد أسد الدين سيفه وقتل النصرانى وصعد الى القلعة وكان مهيباً فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى فبلغ بهروز صاحب قلعة تكريت ما جرى وحضر عنده من خوفه من جرأة أسد الدين وانه ذو عشيرة كبيرة وان أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا وانه ربما كان منهما أمر تخشى عاقبته ويصعب استدراكه فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ما جرى من أخيه ويأمره

بتسليم القلعة الى نائب سيره صحبة الكتاب فاجاب نجم الدين الى ذلك بالسمع والطاعة وقصد هو وأخوه عند عماد الدين زنكي بالموصل فاكرمهما واقطعهما الاقطاعات الحسنة ثم اتصلا بنور الدين محمود بن زنكي الى أن أرسل أسد الدين شيركوه الى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين . وبنور الدين تخرج صلاح الدين فقد كان نور الدين يرى له ويؤثره ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمور الجهاد وسافر صلاح الدين الى مصر وهو كاره للسفر فجعله عمه أسد الدين شيركوه مقدم عسكره سنة تسع وخمسين وخمسمائة وكان صلاح الدين فى السابعة والعشرين من عمره فعرف أسد الدين حال مصر وكشف أحوالها والدولة الفاطمية فيها مشرفة على الزوال وقد ضعفت جنديتها ودب الفشل والهرم فى البيت العبيدى وصارت خلافتهم العوبة فى يد كل ذي قوة

والسبب فى دخول أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين الى مصر ان الوزير شاور هرب من مصر واستغاث فى الشام بنور الدين من ضرغام بن عامر لانه قهره وأخذ مكانه فى الوزارة « ولما وصل أسد الدين شيركوه وشاور الى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصوده وعاد الى منصبه وتمهدت قواعده واستمرت أموره غدر بأسد الدين شيركوه واستنجد بالفرنج عليه وحصروه فى بلبيس وكان أسد الدين قدشاهد البلاد وعرف أحوالها وانها مملكة بغير رجال تمشى الامور فيها بمجرد الايهام والمحال » طمع فى الاستيلاء عليها فبلغ شاوراً أن نور الدين قد زين له الاستيلاء على مصر وان أسد الدين لا بد له من قصدها ثانية فكاتب الافرنج « وقرر معهم انهم يجيئون الى البلاد ويمكنهم منها تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه فبلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للفرنج وما تقرر بينهم فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويملكوا بطريقها جميع البلاد فتجهز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر وصلاح الدين فى خدمة عمه أسد الدين شيركوه وكان توجههم من الشام فى سنة ٥٦٢ »

استولى أسد الدين على أزمة الوزارة وقتل شاورا الوزير قبله بأمر الخليفة الفاطمى جرياً على عادة أجداده فى الوزراء وذلك فى ربيع الاول سنة ٥٦٤ كان صلاح الدين « يباشر الامور مقرراً لها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيه

وسياسته » ومات أسد الدين بعد شهرين وخمسة أيام من تولية الوزارة للعاضد الفاطمي فتولاها صلاح الدين بعده « وتمهدت القواعد ومشى الحال على أحسن الاوضاع وبذل الاموال وملك قلوب الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بقميص الجد والاجتهاد » و « من حين استتب له الامر مازال يشن الغارات على الفرنج الى الكرك والشوبك وغيرهامن البلاد وغشى الناس من سحائب الافضال والانعام ما لم يؤرخ من تلك الايام وهذا كله وهو وزير متابع القوم لكنه يقول بمذهب أهل السنة مارس فى البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين » وهو يكرم كل وافد ولا يخيب أحداً قصده .

بهذا الكرم والعقل دانت مصر لصلاح الدين وأصبح فيها الحاكم المتحكم واصطناع الفضلاء وتقريب العقلاء والافضال على العلماء والشعراء من آكد الطرق فى بلوغ المقصود وتهيئة أسباب الملك

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان

ولما ثبتت قدم صلاح الدين فى مصر وأزال المخالفين كما قال ابن الاثير وضعف أمر العاضد ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب اليه الملك العادل نور الدين محمود بأمره بقطع الخطبة العاضدية واقامة الخطبة العباسية فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الاجابة الى ذلك لميلهم الى دولة المصريين فلم يصغ نورالدين الى قوله وأرسل اليه يلزمه بذلك الزاماً لا فسحة له فيه واتفق أن العاضد مرض وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة فاستشار أمراءه فى كيفية الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ومنهم من خاف ذلك إلا انه لم يمكنه الا امتثال أمر نور الدين فلما كان أول جمعة من المحرم ( ٥٦٧ ) خطب للمستضىء بامر الله تعالى العباسي فلم ينكر أحد ذلك فلما كانت الجمعة الثالثة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بامر الله ففعلوا ذلك ولم ينتطح فيها عنزان وكتب بذلك الى سائر الديار المصرية

وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بانقطاع الخطبة باسمه

وقالوا إن سلم فهو يعلم وان توفى فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الايام التى بقيت من أجله فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما كان فيه وكان قد رتب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش وهو خصى يحفظه فحفظ ما فيه حتى تسلمه صلاح الدين ونقل أهل العاضد الى مكان منفرد ووكل بحفظهم وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم فى أيوان بالقصر وجعل عندهم من يحفظهم وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء فاعتق البعض ورهب البعض وباع البعض وأخلى القصر من أهله وسكانه . وكان ابتداء الدولة العبيدية أو الفاطمية بافريقية والمغرب فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ومقامهم بمصر مائتى سنة وثمانى سنين وملك منهم أربعة عشر ملكا آخرهم العاضد وأولهم المهدى

أزال صلاح الدين دولة العبيديين على أهون سبب لأنها لم تعد صالحة للبقاء وكفى أن أمراءها أخذوا يراسلون الافرنج لتسلم لهم مناصبهم كما فعل جماعة عمارة اليمنى وأخذوا يراسلون الفرنج فى صقلية وساحل الشام ليقلبوا الحكومة الصلاحية ويعيدوا الدولة العبيديه فشعر بهم صلاح الدين وصلبهم وكما فعل غير واحد من ملوك الطوائف في الاندلس فأنشأوا يحتمون بجيرانهم وأعدائهم ويستعينون بهم على قتال ذويهم وأبناء ملتهم فكان ذلك من أهم الامور فى طمع الاسبانيين ببلاد الاندلس واسترجاعها بعد أن حكمها العرب قروناً . عن على ابن عيسى بن الجراح قال : سألت أولاد بنى أمية ما سبب زوال دولتكم قال أربع خصال أولها أن وزراءنا كتموا عنا ما يجب اظهاره لنا والثانية أن جباة خراجنا ظلموا الناس فارتحلوا عن أوطانهم فخربت بيوت أموالنا والثالثة انقطعت الارزاق عن الجند فتركوا طاعتنا والرابعة أيس الناس من انصافنا فاستراحوا الى غيرنا فهذا كان سبب زوال دولتنا . قلنا وهو سبب ذهاب أكثر الدول وهذه الخصال كانت ولاشك موجودة فى الفاطمية .

قال صاحب الكامل : ولما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد ووهب أهله ما أراد وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والاعلاق النفسية ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جمع على طول السنين وممر

الدهور فمنه القضيب الزمرد طوله نحو قصبة ونصف والحبل الياقوت وغيرها ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد وهكذا عادت الى مصر الخطبة والسكة باسم الخليفة العباسى بعد أن انقطعت دهراً طويلا فأرسل المستضىء بأمر الله خلعة الى نور الدين فى الشام وأخرى أقل من خلعته الى صلاح الدين في مصر

ثم حصلت وحشة بين نور الدين وصلاح الدين وذلك أن الاول طلب الى الثانى أن يجمع العساكر المصرية ويأتى الى الكرك ليجمع هو العساكر الشامية ويأتيها ليخلصوها من الافرنج فبعد أن صدع بالامر أرسل اليه كتابا يعتذر فيه عن الوصول باختلال الديار المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وانهم عازمون على الوثوب بها وأنه يخاف عليها مع البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه وتغير عليه وكان سبب تقاعد صلاح الدين أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين فاذا لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده وعزم على الدخول الى مصر واخراج صلاح الدين منها فبلغ الخبر الى صلاح الدين فجمع أهله ومنهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحازمى ومعهم سائر الامراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه واستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء فقام تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين وقال : اذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهله فشتمهم نجم الدين أيوب وانكر ذلك واستعظمه وكان ذا رأى وفكر وعقل وقال لتقى الدين : أقعد وسبه وقال لصلاح الدين : أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك أتظن أن فى هؤلاء كلهم من يحبك ويريدلك الخير مثلنا فقال لا فقال : والله لو رأيته أنا وخالك شهاب الدين نور الدين لم يمكننا الا أن نترجل له ونقبل الارض بين يديه ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا فاذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا وكل من تراه من الامراء والعساكر لورأى نور الدين وحده لم يتجاسر من الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الارض بين يديه وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وان أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأى أن تكتب اليه كتاباً وتقول : بلغنى انك تريد الحركة لاجل البلاد فأي

حاجة الى هذا يرسل المولى نجاباً يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى اليك فما ههنا من يمتنع عليك وقال لجماعته كلهم : قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد فتفرقوا على هذا وكتب أكثرهم الى نور الدين باالخبر . ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له : أنت جاهل قليل المعرفة تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على سرك وما فى نفسك فاذا سمع نور الدين انك عازم على منعه عن البلاد جعلك أهم الامور وأولاها بالقصد ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر وكانوا أسلموك اليه وأما الآن بعد هذا المجلس سيكتبون اليه ويعرفونه قولى وتكتب أنت اليه وترسل اليه فى المعنى وتقول أى حاجة الى قصدى يجئ نجاب يأخذنى بحبل يضعه فى عنقى فهو اذا سمع عدل عن قصدك واستعمل ما هو أهم عنده والايام تتدرج والله كل وقت فى شأن . والله لو أراد نور الدين قصبة من قصب سكرنا لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل . ففعل صلاح الدين ما أشار به والده فلما رأى نور الدين الامر هكذا عدل عن قصده وكان الامر كما قال نجم الدين أيوب وتوفى نور الدين ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد قال ابن الاثير وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها .

هذا هو التوفيق الذى حالف صلاح الدين دخل مصر كارهاً مع عمه فصار قائد جندها ثم تولى وزارتها فملكها وقلب دولة العبيديين وكل ذلك بأخذه بالحزم فى أموره واستشارته العقلاء من أهله ورجاله وكان من طبعه أن لا يبت أمراً بدون مشورة هكذا كان منذ ابتدأ شاباً الى أن استولى بعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩ على الشام الى أن استخلص بيت المقدس من أيدى الافرنج وطردهم من أكثر مدن ساحل الشام يعمل بقول بشار :

اذا بلغ الرأى النصيحة فاستعن برأى لبيب أو نصيحة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة فان الخوافى رافدات القوادم

وكان نور الدين قد خلف ولده الملك الصالح اسمعيل وكان بدمشق عند وفاة أبيه فسار الى حلب من دمشق فلما علم صلاح الدين ان الملك صالح صبى لا يستقل بالامر ولا ينهض باعباء الملك واختلت الاحوال بالشام تجهز من مصر فى جيش كثيف وترك بها من يحفظها وقصد دمشق مظهراً انه يتولى مصالح الملك الصالح

فدخلها بالتسليم سلخ سنة سبعين وخمسمائة وتسلم قلعتها ففرح الناس به وانفق مالا جزيلا وسار الى حلب فنازل حمص وأخذ مدينتها ثم استولى على تلك البلاد الى الفرات وما بعد الفرات وتوفى الملك الصالح بعد مدة قليلة فاخذ حلب ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ثم عاد صلاح الدين سنة ٥٧٧ واستولى على حلب ودانت له البلاد وفتح بيت المقدس بعد أن ملكه الافرنج نحو مائتى سنة ولم يفشل فى واقعة من وقائعه مع الصليبيين على كثرة عددهم وعديدهم اللهم الا فى عكا فاستعادوها منه بعد أن فتحها بواسطة ملك الانجليز اذ ذاك ريشاردس قلب الاسد .

ان عدل الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد ادهش الاوربيين فى ذاك العهد فكانوا هم يعاهدون فينكثون أما هو هو فما عاهد ونكث قط وكثيراً ما كان بعض خاصته من متعصبة المشايخ الذين لا يعرفون سياسة الملك ولا حسن ادارة الفتوحات يريدونه على أن يعامل الصليبيين بعملهم فى الانتقام من أسراهم عنده كما فعل أولئك وقتلوا مرة مئات من أسرى المسلمين فما كان جوابه الا الاعراض عن مقترحاتهم والعمل بسنة اللين واللطف حتى استهوى القلوب الشاردة وأحبه أعداؤه قبل أوليائه وهذا من أندر النوادر فى الملوك وناهيك بعصره الذى كان عصر التعصب الدينى فى الغرب والشرق أيضاً فالصليبيون جاؤا هذه الديار مدفوعين بعوامل الدين واستنقاذ بيت المقدس من المسلمين وهؤلاء قاموا باسترجاع البلاد بهذا العامل القوى أيضاً

قال عبد المنعم الجلياني أحد شعراء الملك الناصر صلاح الدين من قصيدة يعلل فيها السبب الذى من أجله أحب الفرنج صلاح الدين :

وفيت لهم حتى أحبوك ساطياً ... بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
نخانوا فخابوا فانتدوا فتلاوموا ... فقالوا خذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ أتى ... بقلب سليم راحماً للمسالم
فخطوا بارجاء الهيا كل صورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الاقائم
يدين لها قس ويرقى بوضعها ... ويكتبه يشفى به فى التمائم

ملك مصر والشام والجزيرة والعراق واليمن والملك لما يستتب له على ما يجب

فاستطاع بعقله واخلاصه لامته ووطنه أن يدفع غارات الاوربيين عن أرض الشام ومصر بعد أن رسخت أقدامهم قرنين كاملين واستجاشوا لهم الانصار وحشروا من جميع أمم أوربا العدد الكثير وبذلوا فى ذلك من المال والرجال ما يقدر بالملايين والربوات ان هذا من عجائب التاريخ . تقف كتائب من العرب والترك والاكراد فى موقف القتال مع الفرنسوى والالمانى والانكليزى والمجرى والايطالى والاسبانى والنمساوى والسويسرى وغيرهم من أمم الافرنج فيبز الاولون الآخرين على قلة عددهم . ولكن الجيوش قد لا تؤتي من قلة أكثر مما تؤتى من سوء السياسة وعتو القواد والاستهانة بالشورى . وما كان المدافع كالمهاجم فى وقت من الاوقات .

ومع هذا الملك الضخم الذى كان لصلاح الدين كان يعيش عيش المتوسطين وينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف فقد كانت قطيعة الصلح بينه وبين الافرنج فى القدس مثلا أن يؤدوا عن كل رجل عشرين ديناراً وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية وعن كل ذكر صغير أو أنثى ديناراً واحداً فمن احضر قطيعته نجا بنفسه والا أخذ أسيراً فأقام صلاح الدين يجمع الاموال ويفرقها على الامراء والرجال ويحبو بها الفقهاء والعلماء والزهاد والوافدين عليه ولم يرحل عن القدس ومعه من المال الذى جبى له شىء وكان يقارب مائتى الف دينار وعشرين ألف دينار . قال فى البرق سمعت الملك العادل ( أخو صلاح الدين ) يوماً فى أثناء حديثه فى ناديه وهو يجرى ذكر افراط السلطان فى أياديه يقول : انى توليت قطيعة القدس فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار فجاءنى خازنه بكرة وقال : نريد اليوم مانخرجه فى الانفاق فما عندنا مما كان بالامس شىء فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى فى الحال . قالوا . وكان يرضى من الاعمال بما تحمل صفواً عفواً وكله يخرج فى الجود والجهاد

وكان يكتفى من اللباس بالكتان والقطن والصوف ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل قال العماد وما سمعت له قط كلمة تسقط ولا لفظة فظة تسخط يؤثر سماع الاحاديث ويكلم العلماء عنده فى العلم الشرعى وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة فى القضاء أعلم منهم بالاحكام الشرعية

وكان من مجالسه لا يعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد انه مجالس أخ من الاخوان وكان حليما مقيلا للعثرات متجاوزاً عن الهفوات تقياً نقياً وفياً صفياً يغضي ولا يغضب ما رد سائلا ولا صد نائلا ولا أخجل قائلا ولا خيب آملا .

أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء بحيث كان اذا جري الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء وكان شديداً على الفلاسفة والمعطلة والدهرية وكان مواظباً على صلواته وصيامه عادلا رحيما ناصراً للضعيف على القوى وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً على انه كان فى جميع أوقاته قابلا لما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينهي اليه من المظالم

كان من عظماء الشجعان قوى النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر وصل فى ليلة واحدة من الافرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد إلا قوة نفس وكان يعطى دستوراً ( أى يسرح عسكره ) فى أوائل الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة إذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة ألف ومع هذا تراه صابراً هاجرا فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه قانعاً من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تضربها الرياح يمنة ويسرة . وكان لابد له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرة أو مرتين اذا كان قريباً منهم واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ويخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة يرتب الاطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها وكان يشارف العدو ويجاوره

انهزم المسلمون فى يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقع الكؤس والعلم وهو ثابت القدم فى نفر يسير فانحاز الى الجبل يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو فى ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ولم يزل مصابراً لهم وهم فى العدة الوافرة الى أن ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من

جانبهم فان الضعف والهلاك كان فيهم أكثر ولكنهم كانوا يتوقعون النجد والمسلمون لا يتوقعونها وكانت المصلحة فى الصلح .

ولقد كان يركب للحرب وهو على غاية المرض كما فعل يوم عكا وقد اعترته دمامل ظهرت عليه من وسطه الى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار الى صلاة الظهر يطوف على الاطلاب ومن العصر الى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الالم وقوة ضربات الدمامل وكان يعجب من ذلك فيقول اذا ركبت يزول عنى ألمها حتى انزل .

ومع كل هذه الصفات التى نعدد منها ولا نعدها لكثرتها واجماع المؤرخين من العرب والافرنج عليها كان السلطان حسن العشرة لطيف الاخلاق طيب الفكاهة حافظاً لانساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لانساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان أصحابه يستفيدون فى محاضرة منه ما لا يسمعون من غيره وكان يستحسن الاشعار الجيدة ويرددها فى مجالسه وكثيراً ما ينشد قولهم

وزارنى طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعى الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولى به فرحاً ... وكاد يهتك ستر الحب بى شغفاً
ثم انتبهت وآمالى تخيل لى ... نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفاً

وكان يعجبه قول ابن المنجم فى خضاب الشيب

وما خضب الناس البياض لقبحه ... وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت ... على الرسم من حزن عليه منازله

وكان يسأل الواحد منهم عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد الا بالخير وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد الا بالخير وطاهر اللسان فما شوهد مولعاً بشتم قط حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم الا وترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه وسلمه الى من يكفله ويعنى بتربيته وكان لا يرى شيخاً الا ويرق له ويعطيه ويحسن اليه .

قال ابن شداد : ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير افرنجي قد أصابه كرب بحيث انه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع فقال للترجمان : من أي شيء يخاف فاجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبمدرؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت انى ما أرى الا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه . قال ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الايام قبالة الافرنج وقد وصل بعض اليزكية ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها فقال اليزكي . ان هذه خرجت من عند الافرنج فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها فأمر الترجمان أن يسألها قصتها فقالت اللصوص المسلمون دخلوا البارحة الى خيمتي وسرقوا ابنتي وبت البارحة استغيث الى بكرة النهار فقال لي المملوك: السلطان هو أرحم ونحن نخرجك اليه تطلبين ابنتك منه فاخرجوني اليك وما أعرف ابنتي الا منك فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب الى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه فما كان الا أن وقع نظرها عليها فخرت الى الارض تعفر وجهها في التراب والناس يبكون على ما نالها وهي ترفع طرفها الى السماء ولا نعلم ما تقول فسلمت ابنتها اليها وحملت حتى أعيدت الى عسكرهم .

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول دلالة على حرية وسعة صدر وقد كان يوماً بعض خدمه يلعبون بسرموزة ( بانتوفل ) في ناحية فوقعت على رأسه فأدار وجهه كأنه لم يحدث شيء وتظاهر بانه لم ير شيئاً وكان الحافظ ابن عساكر يدخل قصره يقرأ الحديث فكانت جلبة الخدم ترتفع فتكرر ذلك حتى قال الحافظ يوماً : ما هذا ؟ كنا في عهد نور الدين ندخل هذا المكان والناس كأن على رءوسهم الطير اشارة الى ان صلاح الدين يتساهل مع خدمه ملقيا حبلهم على غاربهم .

لما فتح صلاح الدين القدس وغيرها من السواحل ولم يبق في أيدي الصليبيين الا عكا وصور وغيرها من البلاد التي لا شأن لها ورأى ان المشيب انذره بقرب الاجل عقد العزم على الحج الى بيت الله الحرام فلما بلغ القاضي الفاضل كتب اليه

مشيراً بتبطيله : ان الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ولا سلوا عن القدس ولا يوثق بعدهم فى الصلح فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوماً مدة الغيبة فيه أن يسيروا ليلة فيصبحوا فى القدس على غفلة فيدخلوا اليه بالعياذ بالله ويفرط مديد الاسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التى لا تغتفر ومن المنكرات التى لا تقال الى أن يقول : يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل مايتقرب به الى الله وما هى بواحدة فى أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ومن تسلط من المقطعين على المنقطعين ما لا ينادى وليده وفى وادى برى والزبدانى من الفتنة القائمة والسيف الذى يقطر دماً ما لا زاجر له وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ومن المهمات اقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها .

ملأت أوقاف صلاح الدين مصر والشام وهى غير منسوبة اليه قال ابن خلكان ولقد فكرت فى نفسى من أمور هذا الرجل وقلت انه سعيد فى الدنيا والآخرة فانه فعل فى هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة وليس فيها شىء منسوباً اليه فى الظاهر اه مات صلاح الدين ولم يخلف مالا عن ٥٧ عاماً وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة ولم يخلف سوى دينار واحد بعد أن دخلت فى يديه ثروة الفاطميين وجبى اليه خراج البلاد المفتتحة وحاز مغانم الصليبيين مرات

تغيب السلطان صلاح الدين أربع سنين فى فتح القدس وغيرها من بلاد الساحل وفلسطين لم يدخل خلالها دمشق مع انه « كان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد » فرأى أولاده الافضل والظاهر والظافر وأولاده الصغار وأقام فى دمشق أياما يتصيد هو وأخوه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وأولاده « ويتفرجون فى أراضى دمشق ومواطن الصبا وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل ونصب النهار وما كان ذلك الا كالوداع لاولاده ومرابع نزهه » وبينا هو على ذلك ونفسه تحدثه بزيارة مصر بعد طول الغيبة عنها ناداه مولاه فلباه فابكى المقل وأدمى الحناجر

مات رحمه الله والالسن تذكره بالمحمدة حتى قيام الساعة فكان رجلا يعد

بعشرات الملايين وكم من ألوف لا يساوون واحداً وواحد يساوى ألوفاً . مات وقد زلزل المسلمون لفقده كما كتب القاضى الفاضل فى ساعة موته الى ولده الملك الظاهر صاحب حلب من بطاقة : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة ان زلزلة الساعة شيء عظيم كتبت لمولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاءه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف فى الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالا شديداً وقد حفرت الدموع المحاجر وبلغت القلوب الحناجر وقد ودعت اباك ومخدومى وداعاً لا تلاقى بعده وقد قبلت وجهه عنى وعنك واسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوة راضياً عن الله عز وجل ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وبالباب من الجنود المجندة والاسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا ملك يرد القضاء وتدمع العين ويخشع القلب ولا تقول الا ما يرضى الرب وانا عليك يا يوسف لمحزونون وأما الوصايا مما يحتاج اليها والآراء فقد شغلنى المصاب عنها وأما لائح الامر فانه ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهول العظيم والسلام

---

## مصطفى كامل[1]

فى وفاة فقيد الوطن والصحافة التى اهتم لها أهل القطر عامة وأبانوا فى احتفالهم بتشييعه ومأتمه عن عواطف شريفة وشعور حى نام ، أعظم درس يتدارسه المصريون ولا سيما النابتة الجديدة منهم .

وصف الفقيد العزيز بما وصف به من الاوصاف التى هو جدير بها ، وذرفت الدموع لهول المصاب به فى ابان شبابه ، وأكبرت الامة أعماله وأقواله ، وقامت بالواجب من اكرامه واجلاله . كل هذا حق وكل هذا بزعماء النهضات وقادة الافكار جدير

ولكن اذا صارت تلك الروح التى كانت بالامس تهيج العواطف وتلعب

(١) نشرت فى جريدة المؤيد

بالقلوب ، الى جوار ربها فالواجب علينا أن نبحث فى السر الذى اهتدى اليه صاحبها الراحل ، فأثر هذا الاثر المحمود فى هذه الحقبة القصيرة من الزمن.

كثيرون مثله كانوا يدخلون المدارس ويتعلمون ويتهذبون فتراهم وهم صغار فى المدرسة نفوساً تتلهب غيرة ، وقلوباً تتأوه على قرب أوقات العمل ، لتأتي بما يجب عليها نحو أمتها ومجتمعها ونفسها فما هو الا بضع سنين حتى تتبدل أفكارهم وينطبعوا بطابع غير الذى كنت تعهده فيهم

التاريخ كما يقولون يحكم لمصطفى كامل فيما أتاه من الخير لهذه البلاد وان كانت أعماله عند المنصفين أعظم شاهد حى ، على أن الرجل لم يكن مبرأ من العيوب ، ولكن محاسنه تربو كثيراً على نقائصها ، وهذا ما ننشده فى رجالنا ونتمنى لو يكثر الافراد الذين على شاكلته من أكثر الوجوه فى كل فرع من فروع العمل فى هذا الجهاد العالمى

مصطفى كامل قال وكتب وخطب وجاهد وناضل ونافس وقاوم وتعب وقد كافأته أمته على حسن صنيعه بأن بذلت نحوه عواطفها حياً وميتاً ، فذهب مأسوفاً عليه مذكوراً بالرحمة ، وطوى بساطه بما عليه ، ولكن أمته حية كبيرة كل يوم تلد ولاداتها ، وكل يوم يدفن رجالاتها

أن غاب مصطفى كامل فلا ينبغى أن تغيب عنا سيرته الذكية ، وكيف وصل الى المجد المؤثل والعز الاقعس ، هو لم يؤت من المواهب مالم يؤته أحد من العالمين ، بل امتاز بامتياز واحد ويالله من امتياز امتاز « بارادة » تعمل ، والارادة هى رأس ماله وهى فى أفراد الشرق قليلة ، ويالالأسف إرادة مصطفى كامل هى التى بلغت به ما بلغت وهو فتى قبل الثلاثين فما بالك لو كان بلغ السبعين والثمانين

صحة الارادة هى التى تنقص أبناء الشرق ولذلك تراهم وأن تعلموا وتهذبوا يظلون وراء الغربيين فى جهاد الحياة ، وأن فاقوهم بعض الاحيان فى الذكاء والنشاط ، وكلما كانت الارادة فى صاحبها أقوى كان تأثيره أشد وعمله أسد .

يحزنني والله أن أرى كل يوم فى مصر من الافاضل المهذبين مالم أحلم بوجود أمثالهم من قبل ، ثم تراهم وبعضهم ممن تهيأت لهم أسباب النعمة خاملين خائفين

ضعافاً فى الارادة الى حدانهم اذا قاموا ببعض الواجبات يخشون أن تزول عنهم نعمتهم ، ويحل بهم الويل والثبور

لوكان المتعلمون منا يعلمون كل بما فيه من ارادة ما يجب عليهم عمله ، لما أتى علينا ربع قرن إلا وقد نشأ لمصر عشرات من أمثال مصطفى كامل ، منهم فى السياسة ، ومنهم فى العلم ، ومنهم فى الادب ، ومنهم فى المال ، ومنهم فى إصلاح الاخلاق ، ومنهم في اصلاح البيوت ومنهم فى غير ذلك . وليس معنى هذا أن يكون فى الامة ألوف مثل مصطفى كامل فى السياسة فان أفراداً فيها يكفون . ولكن يجب أن يكون عشرات فى كل فرع من فروع المجتمع ، فالعالم الذي يعلم الناس فيخرجهم من الظلمات الى النور ، والاديب الذى يرقق شعورهم ، والكاتب الذى يؤثر فيهم ، والكيماوى الذى يعلمهم صنع الاسمدة ومعالجة التربة ، والزارع الذى يتوفر على البذر والغرس ، والمهندس الذى يحفر الاقنية والترع ويتعهد السدود والجسور ، والصانع الذى يحيك النسيج ويصنع الصفيح والمصفح — كل هؤلاء ومئات من غيرهم ممن يتعاطون الحرف الضرورية فى العمران ليسوا اذا كانت لهم ارادة كارادة مصطفى كامل فى الفرع الذى توفر على خدمة حياته الا نافعين ، يرتفع بهم الرأس كما يرتفع الآن رأس المصرى الوطنى بذكر مصطفى كامل

حب الشهرة من العوامل القوية فى قيام المجتمعات ، فمن كان ولعه بالشهرة على أصوله تلحقة عن استحقاق ولا يلحقها ، كانت شهرته نافعة له ولامته ، ولا يلام فى حب الشهرة الا من يغالى فيها ويجعلها ديدنه ودينه ، كما لا يلام في حب الاثرة الا المغالى فيها أيضاً ، والاثرة أو حب الذات موجودة فى فطر البشر وان اختلفت درجاتها ، فصحة الارادة هى التى نطلب أن تنتشر بين هذه الامة انتشار العاطفة الوطنية ، فاذا كثرت فينا ففيها ولا شك عن مصطفى كامل أكبر عزاء ، واذا لم تنم فى أفرادنا فنقول ما يقوله بعضهم ان مصطفى كامل كان فلتة من فلتات مصر ، ولمصر فى كل مدة رجل كبير تمتاز به يرتجل بين الرجال ، وتنصره على أى حال ، ويكون موضوع عجب الاجيال بعد الاجيال

# النبوغ المصرى (١)

يا سادتي ويا اخواني

منذ نحو مئة سنة والقطر المصرى ينهض نحو الترقى ويحتذى مثال الغرب فى نهوضه . وكان من قبل لولا جامعة الازهر الدينية أشبه بكثير من بلاد العرب فى قلة العلم والنور . وبالأزهر المعمور لم ينفك المصريون على اختلاف أعصارهم وأدوارهم أن يكون فيهم من اذا سئل سدد فى علوم الشريعة وما يلزمها من علوم اللسان .

ولقد خلد التاريخ اسم ( محمد على الكبير ) جد الاسرة المالكة الحالية بما أسداه الى مصر من الايادى البيضاء فانعشها من سقطتها ، وأيقظها من طويل رقدتها . ولو كتب له تحقيق جميع أمانيه الشريفة لكان العرب اليوم من أرقى الدول الكبرى فى العالم . فانه رحمه الله لم يترك باباً من أبواب النهوض المادى والعلمى الا وطرقه على أجمل صورة وعمل بجميع الاسباب لحياة مصر

وكان لعلماء الفرنسيس الذين استصحبهم نابوليون فى حملته على مصر والشام يد طولى فى وضع أساس هذه النهضة المباركة على النظام الاوربى . وعد علماء فرنسا من بعد العامل الاقوى فى معاونة محمد على على اسعاد القطر ثم جاء علماء الانكليز والالمان والطليان وغيرهم من أمم أوربا وخدموا مصر بتنظيم سككها واصلاح ريها ، واحياء زراعتها ، واستخراج آثارها وانماء القوى المفكرة العاملة فى بنيها

نعم كان العلم فى مصر حتى الثلث الاخير من القرن الماضي لا يتعدى الا قليلا دائرة الدينيات والادبيات . ولمحمد على الكبير يرجع الفضل الاكبر فى بث مبادىء العلوم التى يسمونها خطأ الحديثة ، اذ كان لاجدادنا فيها القدح المعلى ، وهم الذين نقلوها الى أمم الحضارة الحديثة مشفوعة بابحاثهم وزياداتهم

(١) خطاب تلى فى حفلة التأبين التى أقيمت للمرحوم احمد كمال باشا الاثري المصرى فى ردهة المجمع العلمى فى دمشق ( ١٩٢٣ — ١٣٤٣ )

واختراعاتهم وبعد عهد محمد على ضعفت العناية بالعلوم كان انقطع سندها دهراً طويلا ، وكادت البلاد تدخل فى سبات مؤلم وتنبت ممیت . كان ضعف العلم بعد عهد شارلمان فى فرنسا . وبين محمد على وشارلمان شبه كبير فى التناغى بحب المعارف والفضائل . وكذلك حدث فى الاستانة بعد دور الفاتح فانقطعت الرغبة فى العلم بموت السلطان محمد الثانى وكاد يزال كل ما أسسه لاحياء معالمه . والارتقاء والانحطاط ولا سيما فى هذا الشرق القريب تبع للفرد أكثر من الجماعة ، فان أسعد الحظ الامة بسلطان عاقل عادل سعدت ونجحت والعكس بالعكس .

ولما انتهى فى مصر دور الناقلين والمترجمين والجامعين والمقتبسين فى بعض ضروب العلم ، جاء دور الباحثين والمؤلفين والمبدعين ، واستطاع المصريون باصلاح شؤونهم الاقتصادية أن يتلقوا العلم الصحيح فى جامعات الغرب ، فكان لهم على الدوام بضع مئات من الطلبة ، وكثر ارتحال الاوربيين الى مصر وطواف المصريين الى أوربا ، واشتد التمازج بين المصرى والغربى فاقتبس المصري بعض ما ينقصه من أساليب النهوض ، وكان لادخال الاصلاح على الازهر ودار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى والحقوق والزراعة والهندسة وغيرها من المدارس العالية والثانوية والابتدائية ولا سيما الكتاتيب فى القرى والمزارع ما نراه من آثار نهوضها فندهش له ونهش وكلما كثر سواد المتعلمين هناك جاءت منهم طبقة أمثل من التى سبقتها . وتراجع كل نتفة فى العلم والصنائع وأصبحت الكلمة للاخصائيين والمفننين . وكلما استحكمت حلقات هذا الرقي استغنت مصر عن الغريب واكتفت بعقول العاملين من رجالها . سنة الخالق فى النشوء والارتقاء

تطورت مصر فى نهضتها الاخيرة أطواراً كثيرة فكان الضعف يعروها تارة والقوة تصاحبها أخرى . وكان يعد نوابغ رجالها بادىء بدء بالآحاد فأمسوا يعدون اليوم بالمئات . وكلما امتزج المصرى بعنصر آخر من العناصر الشرقية حسنت ملكاته ، وصحت على الترقي ارادته ونياته . وقد نبغ لعهدنا رجال ليسوا مفخراً من مفاخرها فقط ، بل هم مفخر العرب والشرق عامة ، ومنهم والحق يقال أفراد لا يقلون عن أرقى علماء الغرب فى ذكائهم ومضائهم وبحثهم ودرسهم ، وذلك فى مجموع العلوم البشرية ولا سيما فى الهندسة والكيمياء والتصوير

والطبيعة والحقوق والطب والجراحة والسياسة والادارة ومن أعظم نوابغها زميلنا أحد أعضاء المجمع العلمي العربي المرحوم احمد كمال باشا الذى نحتفل الآن بتكريم اسمه واستمطار الرحمات عليه فقد كان أجزل الله ثوابه مثال النبوغ المصرى وآخر طراز كامل من أفراد الدهر . رزق صفات العالم العامل ، وصرف نقد عمره فى خدمة الآثار ، ولا سيما علم الآثار المصرية حتى أصبح على صعوبة هذا الفن وحداثته الحجة الثبت فيه ، فكان اذا كان ذكر فى الغرب والشرق علم الآثار المصرية يتمثل فى شخصه ويتجسد فى جهاده . عمل هذا بعيداً عن الجمجمة فى زاوية صغيرة من بلده ، فعمت شهرته الخافقين ، ولم تخف جلائل أعماله على الغريب دع القريب

أيها السادة . اذا قام مجمعنا بتعداد بعض مآثر نابغة الشرق فى الآثار فانه يقضى واجبين واجب للعلم بتكريم أحد حملته وأساطينه وواجب آخر أعم وهو التنويه بذكر النابغين من المصريين وتمجيد النهضة العلمية المصرية التى لها الفضل الاعظم على نهوض العرب النازلين فى ارجاء القارتين العظيمتين آسيا وأفريقية لمصر ولرجال مصر ، ولا نكران للجميل ، أثر ظاهر فى الامة العربية والاسلام ، فاذا ذكرنا مصر فاننا نذكر آخر دولة انحطت من ممالك العرب وأول دولة نهضت فيه . اننا بترداد اسم مصر نذكر أمة حفظت لنا تراث الاجداد . ننوه بشعب كريم احتفظ بلساننا ومشخصاتنا ، ولولا مصر بعد عهد الجراكسة والترك لاضمحلت العربية ومقوماتها ، ولتأخر نهوض العرب قروناً ، وكنا أقرب الى الاندماج فى غيرنا من العناصر المتغلبة ، ولساءت حالنا العلمية أكثر مما ساءت ، وشاهدنا ونشاهد تخريباتها فى جسم جامعتنا ومجتمعنا

انتفع الشام وهو القطر الشقيق الاصغر لمصر المحبوبة بالنهضة المصرية اكثر من غامة الاقطار العربية للجوار وأواصر القربى وكثرة التشابه بينهما ، ولان اقدارهما فى عهد الدول الاسلامية كانت واحدة وحياتهما الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام فى دولة الراشدين والدولة الاموية فالعباسية فالطولونية فالفاطمية فالاليوبية فدولة الاتراك المماليك فدولة الجراكسة فدولة الترك العثمانية وكانت مصر منبعث حضارة فى معظم أزمانها كما كانت فى العقود الاخيرة من

حياتها ملجأ ومعتصما للاحرار . ومباءة ممتازة للعلم الاسلامى تأخذ عنها الاقطار والامصار .

نعزى مصر بفقيدها النابغة ونحييها بهذه المناسبة ونرجو لها حياة طيبة بابنائها النجباء . نحيي بها أهم جزء من بلادنا العربية طالما حتى على العرب وحمل النور اليهم مقتبساً . مصر اليوم بارز العرب وعاصمتهم الأدبية تشبه ايطاليا فى عهد النهضة أواخر القرون الوسطى ، وكان سرى منها ضياء المعارف والفنون إلى سائر ممالك أوربا فقامت بتأثيرها المدنية الغربية الحديثة . ومن مصر سار أمس ويسير اليوم وسيسير غداً شعاع من هذا النور النافع فيعم خيره الاصقاع العربية كافة ، ويومئذ يغتبط العرب ويهنئون لابرازهم بفضل قرائح بنيهم آثاراً حسنة فى العلم والصناعة ، كما فعلت يابان فى القرن الماضى ، وعندئذ يعيد الشرق إلى الغرب ما كان استبضعه من بضائع العلوم والصناعات ، ويقضى الدين مع الشكر ويرد القرش عشرة ، فنعد شيئاً من مجموعة المدنية الحاضرة كما كنا فى العصور السالفة كل شىء ، وكان لنا الأثر المحمود فى تكوين المدنية الغابرة

والآن أترك الكلام لصيفى الاستاذ معلوف يتلو على مسامعكم صورة مصغرة بل مجسمة من عمل عضونا الذى فجعنا بفقده يتمثل لكم فيها النبوغ المصرى أحسن تمثل . ونرفع تعازينا وأسفنا من ضفاف بردى إلى بنى قومنا على شطوط النيل المبارك لفقد رجلهم ورجلنا العزيز ونطلب له من المولى تعالى العفو والرضى والرحمة وإنا لله وانا إليه راجعون .

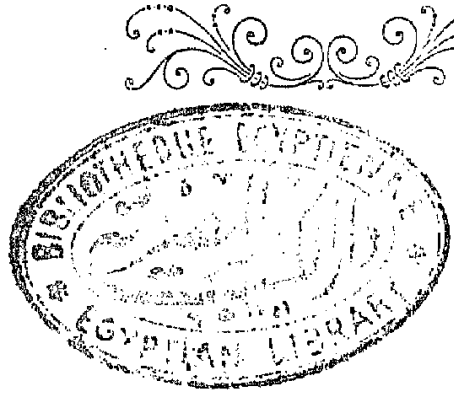
BIBLIOTHEQUE EGYPTIENNE
EGYPTIAN LIBRARY

# فهرس

## كتاب القديم والحديث


| صفحة | |
|---|---|
| ١ | فاتحة — القديم والحديث |
| ٦ | الشعوبية |
| ٢٠ | العلم الصحيح |
| ٢٥ | علاقة العرب بالغرب |
| ٤٢ | ارتقاء العرب وانحطاطهم |
| ٥٤ | اعداء الاصلاح |
| ٦٠ | تعلم اللغات |
| ٦٥ | اللغات الافرنجية |
| ٧٠ | الحافظة والحفاظ |
| ٨٦ | الانشاء والمنشئون |
| ١٠٨ | الخطابة عند العرب |
| ١٣٧ | الخطابة عند الافرنج |
| ١٤٨ | أصل المعتزلة |
| ١٥٧ | أصل الوهابية |
| ١٧٤ | دولة الادب فى حلب |
| ١٨٦ | بين دمشق والقاهرة |
| ١٩٩ | مدن العرب |
| ٢٠٨ | سماع الالحان |
| ٢١٩ | شرف الموسيقى |
| ٢٢٤ | الاستشفاء بالموسيقى |
| ٢٢٨ | الموسيقى الغنائية |
| ٢٣١ | الاستقلال والاتكال |

| صفحة | |
|---|---|
| ٢٤٢ | الهجرة |
| ٢٥١ | الهجرة إلى مصر |
| ٢٥٧ | التفاضل بالبلاد |
| ٢٦٠ | النزلاء المسلمون |
| ٢٦٤ | غوطة دمشق |
| ٢٦٦ | شبه جزيرة كليبولى |
| ٢٦٨ | جبال طوروس |
| ٢٧٠ | على قبر أبى الفدا فى حماة |
| ٢٧٣ | لحن والمسكرات |
| ٢٨٠ | المآدب والاسراف |
| ٢٨٢ | التمدن الانثوى |
| ٢٨٦ | تكريم النزاهة |
| ٢٨٨ | الحاج مصطفى حولا |
| ٢٩٠ | المستشرقون ومؤتمرهم |
| ٢٩٦ | الالقاب العلمية |
| ٣٠١ | التميز بالألسنة |
| ٣٠٥ | السلطتان |
| ٣٠٧ | حرية الامم |
| ٣١٠ | صلاح الدين ومدونو سيرته |
| ٣٢٦ | سيرة صلاح الدين |
| ٣٤٠ | مصطفى كامل |
| ٣٤٣ | النبوغ المصرى |


obeikandl.com

| صفحة | سطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ٦ | ٦ | أو القضاء | والقضاء |
| ٦ | ٩ | الاستمداد | الاعتداد |
| ٧ | ٢ | وكل فن | الا أن كل فن |
| ٧ | ٣ | ويبدأ بسرعة | يبدو بسرعة |
| ١٠ | ٦ | لماخفر من جواره | لما أخفر من جداره |
| ١٠ | ١٧ | وفى نفسى | وفي نفسه |
| ١٤ | ٢ | على العرب آدم | على العرب بآدم |
| ١٤ | ٣ | ألا تفضلونى عليه | لا تفضلونى عليه |
| ١٤ | ١٤ | طهرها الله كل | طهرها الله من كل |
| ١٤ | ١٧ | على بن قتيبة | على ابن قتيبة |
| ١٤ | ٢١ | وبعد همسهم | وبعد همهم |
| ١٤ | ٢٢ | اورمتها | ارومتها |
| ١٥ | ١٠ | دونه كر | دونه كرم |
| ١٦ | ٤ | يجوز | يجود |
| ١٨ | ٢٤ | ناس | باس |
| ٢٠ | ١١ | حساس | مساس |
| ٢٠ | ١٤ | لم ينقد | لم يتعد |
| ٢٢ | ١٦ | على تقديسهم | على الحديث والاصولى يحمل على الفروعي واشتغل |
| ٢٣ | ٩ | منازل | فنازلا |
| ٢٣ | ٩ | والاجود | والاجدر |
| ٢٣ | ١٨ | ماطلت | ماثلت |
| ٢٥ | ١ | يقينه | يقين |
| ٢٦ | ٢٠ | والتصرف | والتصوف |
| ٢٨ | ١٧ | سنة ١١ م | سنة ١٣١١ م |
| ٢٩ | ١٢ | بالجزائر | فالجزائر |
| ٣١ | ٢٣ | التى بالمدنية | التى تقف بالمدنية |
| ٣٢ | ٩ | فالمجتمعات | فالمجتمعات |
| ٣٣ | ١ | الاوربية | الاوربية عناء |
| ٣٧ | ١٥ | شخصياتهم | مشخصاتهم |
| ٣٦ | ١٤ | تفلس | تفرنس |
| ٤٩ | ٦ | اليهود | الهنود |
| ٤٢ | ١٩ | وأوغلوا عليهم | وأوغلوا فى فتوحهم ونشروا ألوية العدل والاحسان بين من غلبوا عليهم |
| ٤٣ | ٥ | تضاف هذه الجملة بعد مظهرها: | مع الشدة وتأثراتهم أقوى وتخيلهم أعظم وذكاؤهم أشد توقدا وأسرع للفهم لكنه أضعف وأميل الى عدم الثبات والسرعة فى أعمالهم الاعتيادية أكثر من الحركة وربما كان تركيبهم الطبيعى أضعف قوة ونفوسهم أقل عزما وثباتا |
| ٤٣ | ١٨ | فلا تمتدز | فلا نقوم |
| ٤٤ | ٦ | بكل العلوم | بالعلوم |
| ٤٥ | ٣ | بالقوس | لا بالفرس |
| ٤٧ | ١٥ | واعرفوا | وأتوا |
| ٤٨ | ٤ | الستمر | السبنحر |
| ٤٨ | ٢٥ | ومن غيرها | ومن عزها |
| ٥١ | ٢٢ | يعدم | يقوم |
| ٥٢ | | ونحن | وعمو |
| ٥٣ | ١ | والفردية | والقروية |
| ٦١ | ١٤ | تمام | تمتام |
| ٦٣ | ٢٤ | وبريس | وبرلين |
| ٦٤ | ١٣ | المعتدى | المتعدى |
| ٦٨ | ٢١ | مقرنا | فقرنا |
| ٩١ | ٢ | على بن هند | على بن هندو |
| ٩١ | ٦ | صاحب النشوا | صاحب النشوار |

| صفحة | سطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ٩٥ | ٦ | ابو الفتوح | أبو الفرج |
| ٩٦ | ١١ | الحمالات | الحملات |
| ٩٦ | ٢٣ | بن خبير | ابن جبير |
| ١٠٠ | ٨ | البربر | البربير |
| ١٠٦ | ٢٠ | ولا ملوك | وملوك |
| ١١٣ | ١٦ | ويأمو | ويأمرهم |
| ١١٨ | ٢٣ | واللسان | والانسان |
| ١٢٠ | ٥ | الجرح | الجرس |
| ١٢١ | ١٤ | البير | البرد |
| ١٢٤ | ٩ | ولا تستعين | وتستعين |
| ١٢٥ | ١١ | فى التلخص | في التخلص |
| ١٢٨ | ١٢ | الانبياء | الابيناء |
| ١٣٦ | ١١ | سلمة | مسلمة |
| ١٣٩ | ٢٢ | الخطابية | الخطابة |
| ١٤٢ | ١٢ | تعلمهم | تعملهم |
| ١٤٤ | ١٤ | معناة | معاناة |
| ١٤٥ | ٢٢ | والمحركات | ومحركات |
| ١٤٧ | ٤ | هنواً | عفواً |
| ١٤٨ | ٤ | الغتة | الغثة |
| ١٤٨ | ١٠ | ولا عناء | ولاعنة |
| ١٤٩ | ٦ | يسب | يسلب |
| ١٤٩ | ١٧ | يفيضنا | بفضين |
| ١٤٩ | ٢٣ | فان قاب فيها | فان تاب فيها |
| ١٥٠ | ٩ | لرعاية | رعاية |
| ١٥٢ | ٩ | منهم | فهم |
| ١٥٢ | ٢٢ | ومسكن | ومكن |
| ١٥٣ | ٨ | وهو اين | وهو ليس |
| ١٥٣ | ١٢ | الصفانية | الصفاتية |
| ١٥٥ | ٨ | من توسد | من توسل |
| ١٥٥ | ٢٥ | لم توانى | لم لا توانى |
| ١٥٦ | ٢ | فما تصوفت | فانصرفت |
| ١٥٦ | ٦ | غدرناك | عذرناك |
| ١٥٦ | ٨ | ثم ابتداء فيه | ثم ابتدأنى |
| ١٥٦ | ١٥ | تغير أهل السنة | تفسير أهل السنة |
| ١٥٦ | ١٧ | المشتبهة | المشبهة |
| ١٥٦ | ٢٦ | يحدث | محدث |
| ١٥٧ | ٥ | عاد | دعا |
| ١٥٧ | ١١ | الاستبقاء | الاستيفاء |
| ١٥٨ | ٦ | واتم | وانمه |
| ١٥٨ | ١٨ | الاشتراك | الاشراك |
| ١٦٣ | ١٧ | تلفيات | تلفيقات |
| ١٦٩ | ١٦ | منهم | منه |
| ١٦٩ | ٢٣ | فيجر | فبحير |
| ١٨٣ | | والصغيري | والصميري |
| ١٨٤ | ٢١ | وسنح | وسح |
| ١٩٣ | ٥ | والواردة | والورادة |
| ١٩٤ | ٢ | ويغال | ويقام |
| ١٩٤ | ١٤ | الواردة | الورادة |
| ٢٠١ | ٢ | والصبح | والصبيح |
| ٢٠١ | ٣ | الالتاخيه | الاتياخيه |
| ٢٠٩ | ٢٥ | يصور | يصوت |
| ٢٢٢ | ٢٢ | بنائه | بنائه |
| ٢٢٣ | ٢٠ | المذوذ | الملذوذ |
| ٢٢٣ | ٢٢ | يتبعه | يتبعها |
| ٢٥٠ | ٢٥ | بالغراء | بالنواء |
| ٢٥٣ | ٢٢ | افواهم | أقدمهم |
| ٢٥٤ | ١٣ | مختلف | مخلف |
| ٢٥٧ | ١٨ | ملاحظ | فالحظ |
| ٢٥٩ | ١٦ | يستقبل | يسمعه |
| ٢٦٥ | ٩ | فلك | فلك |
| ٢٦٥ | ١٩ | يطلع | يتطلع |
| ٢٦٦ | ١٩ | والتشبيع | والتشيع |
| ٢٨١ | ١٤ | ولدة | واحدة |
| ٢٨٨ | ١٨ | مريضة | عريضة |
| ٣١٦ | ١٧ | استملها | استلمحتها |
| ٣١٨ | ٦ | صفارته | سنارته |
| ٣٢٠ | ١ | ويتوفر من | ويتوفر على |
| ٣٣٣ | ٢٤ | صالح | الصالح |
| ٣٣٤ | ٢٤ | فخطو | فخطوا |
| ٣٣٥ | ١٧ | سمت | سمعت |
| ٣٣٦ | ١ | من مجالسه | من يجالسه |

« وقد وقعت أغلاط وسقطات من حروف ونقط أغفلنا الاشارة اليها لانها تعرف بالبداهة »